لا إله إلا الله محمد رسول الله

حضارة ومنهج حياة

حسن ياسين عبد القادر

المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

[الملك: ٢٢]

الإهداء

إلى الأستاذ نعوم تشومسكى اليهودى الأمريكى الجنسية.

تحية له على كلمة حق وعدل قالها فى كتابه الجرئ

«ماذا يريد العم سام».

حسن ياسين عبد القادر

غفر الله له

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف :١٠٨].

اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وإليك المستعان، وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك.

ونصلى ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذى أنزل معه، واهتدوا بهديه، وسلكوا طريقه، فكانوا حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون.

* * *

يقول بعض اللغويين: إن «من المعانى اللغوية لكلمة «التوحيد» النصفة والقسط والعدل، ومن معانى كلمة «الشرك» الإسراف، والتجاوز والظلم» ولا شك أن كل متدبر أوتى فهماً جيداً، وفكراً ذا حيدة وموضوعية، يقر ويؤمن بمصداقية ما ذهب إليه أولئك العالمون بروح وجوهر اللفظ العربى وإيحاءاته ومضامينه البعيدة الغور، ذلك أن كلمة التوحيد، ومشتقاتها مثل الأحد والواحد، والتوحد، والوحدانية. تعنى عدم الازدواجية، والتعددية، والاختلاف وما دام التوحيد نقيضاً للازدواجية لزم أن يكون من معانيه العدل والمساواة والإنصاف. ولقد وصف القرآن الكريك الشرك بأنه ظلم، وذلك على لسان لقمان الحكيم ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان :١٣] ووصف الظالمين المسرفين ﴿ ... وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس :٨٣].

* * *

وهذا – عزيزى القارئ – بحث فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله فى العدل والحرية الإنسانية، والشورى. والجهاد، والسلام، بالإضافة إلى فصل سابق لهذه

الفصول يتعلق بشمولية عقيدة الوحدانية منذ أبى البشر آدم – عليه السلام إلى دعوة خاتم الأنبياء سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم.

وربما تسألنى – قارئى العزيز – ولماذا البحث أو التركيز فى هذه الفصول المشار إليها؟ فأقول لقد أخترت تلك الفصول مؤثراً إياها على غيرها من سياسة الإسلام وحضارته كنظام حياة للبشر فى جميع الأزمنة والأمكنة وذلك لعاملين: أولهما إن ما يميز ويخصص حضارة الإسلام هو العدل المطلق غير المنحاز لطرف حليف أو ضد طرف معاد، ثانيهما: شيوع وانتشار السياسات الظالمة ذات المعايير المزدوجة – فى عصرنا الحاضر – على الرغم ما نسمع – بين الحين والحين – أصواتاً جوفاء منادية بالحفاظ على حقوق الإنسان.

* * *

إن عدالة الإسلام شاملة للصديق والعدو. ففى منهج «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ليس البغض أو الكره لطرف مسوغاً للظلم والطغيان يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ [المائدة:٨] وكما أن العداوة ليست مسوغة للظلم، كذلك المودة ليست دافعة للانحياز أو المحاباة، يقول عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً**﴾ [النساء:١٣٥].

وبكل أسف – فإن العصر الحديث – بمؤسساته الدولية التى تزعم أنها راعية لإقامة العدل بين الدول، ولاسيما الدول المستضعفة أو الدول النامية أو المتخلفة – لم يستطع أن يقيم العدل المبرأ من المصلحة السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية. إنه القى بقيمة العدول وراء ظهره، وجعل هذه المصلحة حكماً أساسياً مضحياً بشعوب ذات سيادة وتاريخ، وحضارة وثقافة. ومن هذه الشعوب المقهورة شعب العراق. الذى ما زال يدفع آبناؤه وأطفاله الذين لا يجدون غذاء ولا دواء، ثمن سياسة المعايير المزدوجة. نتيجة الحصار المفروض على هذا الشعب منذ نحو عشر سنوات بالإضافة إلى العارات

الجوية المستمرة إلى وقتنا هذا. ولقد «تطور» الحصار ضد العراق، وآخر فنون هذا الحصار بعد «تطويره» ما ذكره بعض الكتاب الأمريكيين المنصفين مثل نعوم تشومسكى وآخرين فى كتاب لهم صدر أخيراً بعنوان «العراق تحت الحصار» وجاء فيه أن «١٥٠ طفلاً عراقياً يموتون كل يوم وأن البنية تآكلت، وارتفعت نسبة العطالة عن العمل إلى ما بين ٦٠، ٧٥٪ علماً بأن العراق - قبل الحرب - وقبل الحصار كان يستورد اليد العاملة من الدول العربية والآسيوية. ومن قائمة الممنوعات على العراق، ممنوع على العراق استيراد مواد تنظيف الملابس بحجة أنها مواد كيماوية يمكن استعمالها فى إنتاج مواد سامة، وممنوع على العراق استيراد الأجهزة الطبية، الخاصة بتنشيط الكلى والرئتين، وحتى الكراسى الطبية المتحركة بحجة أنها يمكن أن تستخدم فى المستشفيات العسكرية، لائحة الممنوعات طويلة جداً، ولكن حتى غير الممنوع فإن السماح باستيراده لا يتم إلا بشق الأنفس (١).

لماذ كل هذا ؟!! حتى لا يتمكن - كما يزعمون - العراق من صنع أسلحة الدمار الشامل، إن أسلحة الدمار الشامل النووية منها والميكروبية والكيميائية مصنوعة وجاهزة ومنتظرة أوامر أصحابها لنشر الخراب الشامل فى المنطقة، نعم! إن هذه الأسلحة المحظورة على العراق وغير العراق من دول الشرق الأوسط موجودة على بعد كيلومترات من بغداد عاصمة العراق تحت سمع وبصر الجميع، ولكن ماذا نفعل إنها «عدالة» سياسة الكيل، بمكاييل مختلفة وبموازين متعددة، عقيدة الذين يعبدون المصلحة المادية من دون المعبود بحق سبحانه وتعالى.

* * *

إن منهج «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، لا يدعو إلى العدل المطلق فى السياسة والاقتصاد وحياة الإنسان الاجتماعية والأسرية وحسب. وإنما حض على حرية الإنسان ولكن حرية الإنسان فى التصور الإسلامى حرية ذات أهداف وقيم لا تخرج ولا تشذ عن جوهر الدين الحنيف. ومبادئه الشريفة، ذلك أن حرية الفرد فى الحضارة الإسلامية نابعة ومستمدة، من عبودية الإنسان لله وحده لا شريك له فى ملكه. فالعبودية - كما يقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - رحمه الله تعالى - عبودية القلب لله تعالى. كما

(١) الأستاذ محمد السماك الكاتب اللبنانى فى مقال له بجريدة الأهرام فى ٢٦ / ٤ / ٢٠٠٠م

أن الغنى غنى النفس فعبودية القلب هذه تعنى – فى الوقت نفسه – حرية القلب. وعبودية القلب هذه تعنى عدم الخوف إلا من الله عز وجل. وتعنى أيضاً التحرر من عبادة المال والسلطان والجاه وجميع الشهوات الجسدية وغير الجسدية. وكل ما يحول الإنسان دون قول الحق ولو على نفسه، والإسلام إنما جاء ليدمر كل هذه الأغلال الدنيوية ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

إذن حرية الإنسان فى الإسلام ليست منحة ولا منة من ثورة ضد رجال دين أو كنيسة أو ثورة اجتماعية، أو تفضلاً من انقلاب عسكر، أو رخصة من مجلس نيابى أو برلمان أو دستور من صنع بشر. كلا! إنها نابعة من عبودية الإنسان لله وحده لا شريك له.

ولا يزعمن أو يتوهمن أحد أن الحرية فى منهج «لا إله إلا الله محمد رسول الله» قرين الفوضى أو الصوت الجهورى غير المسئول، أو إعلان عن شجاعة فردية أو جماعية، أو إظهار لأنا ذاتية.

إن الحرية فى عقيدة التوحيد ذات أهداف سياسية واجتماعية بناءة، إنها أداة تقويم للحاكم، والمحكوم، للفرد والمجتمع على السواء.

إن الحرية فى حضارة الإسلام وقاية من نتائج القرارات السياسية الهوجاء غير المدروسة، التى تورد الأمم موارد الهلاك والخسران ذلك أن الحاكم – ولاسيما إذا كان مستبداً – لابد أن تقاوم استبدادَه وانفراده برأيه كلمة جريئة مخلصة، وإلا تمادى فى غيه وجبروته، وقاد الأمة إلى تحكم الأعداء الكفرة، فى سيادة هذه الأمة، وطمس حضارتها وثقافتها، فضلاً عن الاستيلاء على أرض الإسلام وديارِه، وتملك جميع الثروات والموارد الاقتصادية والحيوية.

ولا يصدر قول الحق ولاسيما أمام سلطان جائر، إلا ممن أوتى حرية القلب بعبودية القلب لله الواحد الذى لا شريك له فى ملكه، فذلك هو الذى لا يخشى فى الله لومة لائم، ولا تعذيب، ولا تنكيل، ولاعتو جبار متكبر، وتاريخ العبودية لله تعالى حافل وزاخر، بهذه النماذج الأصيلة، العزيزة بعزة العزيز الحكيم سبحانه. فمنهم أصحاب الأخدود، ومنهم سحرة فرعون الذين سيأتى ذكرهم – لاحقاً – فى هذا البحث.

ومنهم كذلك عمار بن ياسر وخباب بن الأرث، وبلال بن رباح ، من أصحاب خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام.

* * *

والعبودية لله عز وجل وحده، ليست مؤكدة حرية عبد الله وحدها وإنما هى أيضاً وثيقة شرف وعزة وكرامة، لعباد الله المخلصين وهى فى الوقت نفسه، وللمنزلة العظيمة لعبودية من لا يستحقها سواه، سبحانه خاطب الحق تبارك وتعالى كثيرين من أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، بعد أن أنعم عليهم بعزة عبوديته لله وحده. فقال سبحانه مثنياً على سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام ﴿ ... **إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا** ﴾ [الإسراء:٣]. ويقول تباركت أسماؤه عنه أيضاً ﴿ **فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ** ﴾ [القمر:٩] ويقول جل وعلا عن سيدنا داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ﴿ ... **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ** ﴾ [ص:١٧] وقال تعالى: عن سيدنا سليمان عليه السلام ﴿ **وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ [ص:٣٠] وقال عز وجل عن سيدنا أيوب عليه السلام ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ** ﴾ [ص:٤١] وقال عنه عليه السلام ﴿ ... **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ [ص:٤٤].

ورسولنا الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ أنعم الله تعالى عليه بعزة وشرف وكرامة عبوديته سبحانه وتعالى فى آيات متعددة من الكتاب الحكيم منها قوله عز وجل فى معرض التحدى والتعجيز بالقرآن الكريم ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤] وقال تبارك وتعالى: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ** ﴾ [الأنفال:٤١] وفى مفتتح سورة الإسراء ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا** ﴾ [الكهف:١] وفى قوله تعالى: ﴿ **فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ** ﴾ [النجم:١٠] وقال

أصدق القائلين: ﴿هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩] كما قال سبحانه ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].

* * *

لقد ذكرنا – آنفا – أن الحرية فى منهج «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ذات أهداف بناءة فى صنع مجتمع العدل والحق والرخاء، ولتأكيد قيمة الحرية هذه، ولمراقبة الحاكم والمحكوم أحدهما الآخر ليكون قولهما وفعلهما على عقيدة وشريعة منهج الإسلام شُرع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وشُرعت كذلك النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

فالحاكم فى حاجة إلى نصيحة المحكوم وإلى أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وكذلك المحكوم يحتاج إلى نصيحة من الحاكم وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر. فبإعانة الحاكم والمحكوم أحدهما للآخر يشيع العدل والقسط والمساواة، وتندحر وتختفى صور الظلم والطغيان والجبروت.

فى مستهل مقدمتنا هذه أشرنا إلى قول اللغويين إن كلمة «التوحيد» من معانيها العدل والقسط. ومنهج «لا إله إلا الله محمد رسول الله» هو المنهج الوحيد الكفيل بتحقيق العدل المطلق فى دنيا الناس، فللقضاء على الحكم والحاكم المستبد، شرع فى الإسلام الشورى وقد أمر الله عز وجل نبيه عليه الصلاة والسلام بالمشاورة فقال عز وجل ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ذلك أن الشورى سواء كانت واجبة أو غير واجبة تحقق مودة بين الحاكم والمحكومين. كما قال بعض العلماء – وقد شاور النبى ﷺ أصحابه قبل اتخاذ قرار الحرب فى غزوة بدر شاور المهاجرين والأنصار، وذلك قبل نزول الآية الآمرة بالشورى، فالشورى إذا كانت فى قضايا السلم واجبة. فهى فى قرارات الحروب أوجب، لأن فى الحروب ازهاق أنفس، وتيتيم أطفال وترمل نساء، وتشريد أسر.

وفى الحث على العمل بالشورى يقول ﷺ : «إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم، وأموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم. وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها»(١)، وفى حديث آخر يقول المبعوث رحمة للعالمين عليه الصلاة والسلام لما نزلت «وشاورهم فى الأمر» أما إن الله ورسوله لغنيان عنها ولكن جعلها الله تعالى رحمة لأمتى فمن استشار منهم لم يعدم رشدا ومن تركها لم يعدم غيا» نعم صدق رسول الله صلوات الله وسلامه عليه. ففى ترك الشورى، والتخلى عنها فرصة سانحة لانفراد الحكام بآرائهم دون الرجوع إلى الأمة فيما يتخذونه من قرارات، وهذا هو الاستبداد السياسى، نفسه، وفرعونية جديدة، تحتقر نصيحة الناصحين، وإرشاد المرشدين المخلصين ورفض صريح لتطبيق مبدأ الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، إن مثل هؤلاء الحكام مثل فرعون الذى استخف بقومه، فطغى وتجبر، واستكبر وتجرأ إلى أن قال دون حياء «ما علمت لكن من إله غيرى» وقال بعد أن أخذته العزة بالإثم «ما أريكم إلا ما أرى» إن مثل هذه السياسات الحمقاء العمياء طريق معبد، ومطية سهلة لشقاء الأمم والشعوب لأن الرأى الواحد المجرد من الشورى من متغطرس طاغية مؤد إما إلى الخراب الاقتصادى، أو إلى الهزيمة العسكرية والسياسية، وضياع للأرض. والعرض. فضلاً عن سفك الدماء الوطنية البريئة.

وفى عصرنا الحالى ما أكثر ضحايا حكم الفرد، والاستبداد والفرعونية المعاصرة. وللأسف الشديد، إن هؤلاء الضحايا من الشعوب معظمهم من العالم العربى، أو العالم الثالث ونقول للأسف الشديد لأن الأمة الإسلامية. وصفت فى الكتاب الحق المبين المنزل على خير البشر عليه الصلاة والسلام وصفت بأنها خير الأمم بشرط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله ورسله.

ولكن آلت هذه الأمة الخيرة إلى ما آلت إليه بعد أن نبذت كتاب ربها وسنة رسولها عليه الصلاة والسلام – وراء ظهرها.

---

(١) رواه الترمذى / الشورى فى الإسلام د. عبد المجيد سليمان.

نسأل الله تعالى العلى القدير أن يعيد خير الأمم إلى منهج الحق والعدل والخير والعزة والكرامة والنصر المبين إلى منهج «لا إله إلا الله محمد رسول الله». إنه سميع مجيب. كما أسأله عز وجل أن يجعل عملى هذا المتواضع خالصاً لمرضاته تعالى، ولا يجعلها لأحد سواه إنه نعم المولى ونعم النصير.

حسن ياسين عبد القادر

حدائق حلوان فى صفر ١٤٢١ هـ

الموافق مـــــايو سنة ٢٠٠٠ م

التوحيد دعوة
جميع الأنبياء والمرسلين
(١)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

بعث الله تعالى الأنبياء والمرسلين لهداية البشر إلى عقيدة الوحدانية، ونبذ كل ما سواها من عبادة الأصنام والأوثان، والبشر المعبودين من دون الله بدون حق .. وعبادة كل ما سوى الله الخالق المعبود بحق إلها وربا للعالمين فساد وإفساد فى الأرض، فضلاً عن أنها منافية ومجافية لإنسانية الإنسان، ومهينة ومذلة لكرامته، وآدميته التى كفلها له خالقه ورازقه وذلك باسجاد ملائكته لآدم أبى الإنسان الأول – عليه السلام.

والكريم سبحانه جلت قدرته، وتباركت أسماؤه – كما كرم أبا البشر بعد أن سواه ونفخ فيه من روحه. كان عز وجل رحيماً أيضاً بذرية آدم عليه الصلاة السلام، فلم يدعهم هملا، ولم يتركهم – بعد أن خلقهم – عبثاً، بل اقتضت رحمته بعباده، أن يرسل إليهم من يأخذ بأيديهم فيبين لهم سبيل الحق والخير والنور فيسلكونه، وطريق الضلال والهلاك والظلام فيتجنبونه، ولم يكن سبيل الحق والخير والنور والفلاح فى الحياة الدنيا والحياة الآخرة متحققاً وموجوداً إلا فى ظل الحياة تحت راية وحدانية الله تعالى إلهاً وربا واحداً ولم تتخبط البشرية فى دياجير الضلال، وظلمات الهلاك وطغيان البشر، إلا وكان الشرك، والإشراك بجميع صنوفه وأشكاله سيد حياة هؤلاء البشر، ودستور حياتهم الدنيوية.

* * *

سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام وهو الأب الثانى للبشر لم يدع قومه إلا بدين التوحيد، وعبادة الذى لا إله إلا هو رب العالمين قائلاً لهم: ﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا

وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٦ - ٢٩] وقال لهم أيضاً: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

* * *

ودعوة سيدنا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - خليل الله عز وجل وأبى الأنبياء صلى الله تعالى عليهم وسلم. كانت امتداداً لدعوة التوحيد، توحيد الله عز وجل إلها ورباً واحداً ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢ - ٦٧].

وهذا سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام يدعو فرعون وملأه إلى عبادة الله عز وجل الذى لا إله إلا هو، ولكن فرعون الذى فرض نفسه إلهاً من دون الله، أبى واستكبر مؤثراً أن يكون معبوداً بالباطل على أن يكون عبداً للإله المعبود بحق خالقه، وخالق كل شئ سبحانه وتعالى. ولنقرأ هذا الحوار - الذى دار بين نبى الله موسى عليه السلام وبين فرعون - الذى يُظهر جهل فرعون أو تجاهله برب العالمين سبحانه. وتناقضه مع نفسه حين يصف رسول الله بالجنون رغم إقراره برسالته فيقول: إن رسولكم الذى

أرسل إليكم لمجنون ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣– ٢٨].

وذلكم سيدنا هود – عليه الصلاة والسلام – يدعو بدعوة إخوانه الأنبياء والمرسلين صلى الله تعالى عليهم وسلم ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥٠، ٥١].

إن هذه هى دعوة الوحدانية، وهى فى الوقت نفسه دعوة محاربة الشرك والوثنية وكل عبادة ابتغى بها سوى المعبود بحق خالق السموات والأرض، الذى يرجع إليه أمر الدنيا والآخرة. دعوة التوحيد هى دعوة سيدنا عيسى – عليه الصلاة والسلام – وهو برئ من كل من ألهه من دون الله تعالى، فلم يدع إلا بدعوة إخوانه من الأنبياء والرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦ – ١١٨].

* * *

(٢)

شاءت إرادة الله تعالى، واقتضت رحمته بالناس أجمعين أن يبعث إليهم أنبياء ورسلاً، كما ذكرنا ذلك سابقًا واختتمت رسالات هؤلاء الأنبياء والمرسلين برسالة سيد الخلق محمد ﷺ التى جاءت تأكيداً للرسالات السابقة، ولاسيما الدعوة إلى عقيدة التوحيد ورفض جميع أشكال الشرك بالله عز وجل. فكان مما نادى به نبى الإسلام – فى بداية دعوته – «يا أيها الناس قولوا **لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب** وتدين لكم بها العجم فإذا آمنتم كنتم ملوكًا فى الجنة»(١) أى أن الإيمان بوحدانية الله تعالى إلها وربا واحدا يحقق للمؤمنين به مطالبهم الدنيوية والأخروية وهما السيادة فى الأرض. والنعيم الأبدى بعد الموت وكل إنسان سَوِّى لا يبتغى من حياته وبعد موته سوى هاتين الغايتين: السيادة التى أساسها **الحق والعدل**، والسعادة الدائمة إذا غادر هذه الحياة. وهذا المطلبان الأساسيان اللذان يحققهما الإيمان بوحدانية الله هما جوهر الإسلام كله فالإسلام لم يهمل الدنيا فى مقابل دعوته إلى الآخرة، ولم يهمل الآخرة فى مقابل الترغيب فى الدنيا، وإنما جاء ودعا إلى عمارة الدنيا بشروطه لكى ينال الأخرة بتطبيق هذه الشروط فى الأولى.

وشهادة **لا إلــه إلا الله** لها أبعادها ودلالاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية العميقة فى حياة الفرد والجماعة، وسوف نتحدث عن كل من هذه الدلالات، مبينين بالشواهد التاريخية لماذا حوربت هذه الشهادة، وخاصة من قبل السلطة الحاكمة الظالمة، ولماذا كانت الاستجابة لهذه الكلمة، والدفاع عنها من الفئة المحكومة لمغلوبة على أمرها أو «الأراذل» كما وصفوا بذلك، وكما حكى عنهم القرآن الكريم.

* * *

إن كلمة التوحيد لها معان عظيمة وكبيرة إذا مورست هذه المعانى حياتيًا، وطبقت عمليًا يحيا الإنسان حياة تظللها العدالة والحب، والاستقامة، لأن هذه الكلمة لاغية لجميع الفوارق الاجتماعية، والسياسية، فعلى صاحب السلطان واجبات يجب أن

---

(١) زاد المعاد جـ ١.

تؤدى قبل أن تكون له حقوق.. مثل المحكوم سواء بسواء، وعندئذ تتحقق السعادة الدنيوية قبل الأخروية، وهذا معنى قول الرسول ﷺ للناس معلنًا دعوة التوحيد هادمًا عبادة الصنم والوثن سواء كان هذا الصنم أو الوثن حجرًا، أو تمثالاً، أو بشرًا، أو مالاً، أو منصبًا أو سلطة أو شهوات جسدية قال عليه الصلاة والسلام كلمته هذه مدوية فى أرجاء البلد الحرام: «أيها الناس قولوا **لا إله إلا الله تفلحوا**، **وتملكوا بها العرب** وتدين لكم بها العجم فإذا آمنتم كنتم ملوكًا فى الجنة».

ومادامت «لا إله إلا الله» السبب والسبيل للفلاح فى الدنيا والفوز بالنعيم فى الآخرة كما أشرنا آنفًا، فلماذا حوربت وقوومت، وعذب ونكل كل من آمن بها ودافع عنها، هل الإنسان عدو سعادته، وخصم ألد لفلاحه؟.

إن الذى يعادى ويخاصم كلمة التوحيد صنفان:

أحدهما: شخص غير سوى، أبطل عقله وتفكيره وضحى بهما فى سبيل ما ألفه من عادات وتقاليد أسلافه وأجداده، وعز عليه أن يفارق أو يخلع عما تعارف عليه وورثه تقديسًا للقديم وإن كان **خطأ وباطلاً** ورفضا للجديد وإن كان **حقًا وصدقًا**، والقرآن يقص علينا من أمثال هذه النماذج الكثير مثل: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾ [الشعراء: ٦٩ – ٧٤] ومثل قوله تعالى عن قوم سيدنا صالح عليه السلام ﴿**قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ**﴾ [هود: ٦٢] وربما يندرج ضمن هذا الصنف من يرفض الحق لأجل الرفض فقط، ولو ظهرت له دلائل الحق وبراهينه ساطعة جلية مشرقة وهذا الصنف صوره القرآن الكريم حاكيًا هذه النفسية المعوجة المنحرفة قائلاً ﴿**وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الأنفال: ٣٢]. ومثل هذه النفسية معوجة ومنحرفة لأنها ضد الفطرة السليمة الحريصة على الوصول إلى الحق، الداعية خالقها عز وجل أن يهديها ويرشدها إلى الصدق والحق المبين وليست متعنتة وجامحة وموغلة فى الكفر والنكران الجحود.

* * *

والصنف الآخر الذى يعادى دعوة الوحدانية هو صاحب السلطان والنفوذ والسطوة الذى يريد أن يعبد فى الأرض من دون المعبود بحق الله رب العالمين مثل فرعون وقارون وغيرهما، والعبادة يتسع معناها ليشمل التفرد بالرأى والأمر والنهى كما قال فرعون ﴿ **مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ** ﴾ [غافر: ٢٩].

وقد ابتلى العصر الحديث بجراثيم وعلل الفرعونية والقارونية فاغتصب قوم السلطة وجلسوا على سدة الحكم وحسبوا أنفسهم زعماء فصاروا يحكمون بالحديد والنار والإرهاب بالإعدام أو التعذيب فى ظلمات السجون حتى الموت على كل من يخالفهم الرأى ولو كان صائبًا، أو من يقدم لهم النصيحة لا يقصد بها إلا الإصلاح والعالم الثالث وبعض الدول العربية خير شاهد لحكم الفرد الذى يعتقد زوراً وبهتانًا أنه لا ينبغى أن يرى رعاياه إلا ما يرى كما قال فرعون لموسى منذ آلاف السنين.

والنجاة النجاة من بطش الحكام الفراعنة، ومن ظلم ذوى الثروة والمال القارونيين، النجاة من هؤلاء وأولئك هى إقامة دولة خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله الها وربًا واحداً، الكل عباد له سبحانه حكامًا ومحكومين، لا تفضل على بعضهم البعض إلا بتقوى الله الواحد الأحد.

ومن هنا كان منشأ ومرجع خوف ورعب وهلع الحكام والملوك والسلاطين الذين طغوا فأكثروا فيها الفساد من كلمة لا إله إلا الله، لأن الإيمان بهذه الكلمة يعنى زوالاً وتدميراً لنفوذهم وتسخيرهم واستغلالهم واستعبادهم عباد الله تعالى الذى خلقهم وكرمهم ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٠].

ولقد أدرك خطورة كلمة لا إله إلا الله بمعانيها وأبعادها العميقة والكبيرة أدركها عربى بفطرته السلمة، وبذكاء قلبه النابض بالحياة فعندما سمع هذا العربى النبى ﷺ فى بداية دعوته إلى دين التوحيد، يأمر الناس بقول: لا إله إلا الله قال ذلك العربى: هذا أمر تكرهه **الملوك** كذلك قال للرسول عليه الصلاة والسلام رجل آخر أوتى – أيضًا – بصيرة وفقهًا فى القلب – معقبًا على كلمة التوحيد نفسها، إذن تحاربك – أى يا محمد – العرب والعجم.

وكأنى بهذا العربى، أو كأنى بهذه الحكمة، حكمة ذلك الرجل البدوى الذى لم يجلس إلى معلم، ولم يقرأ كتاباً فى علم النفس السلوكى، أجل! كأنى بهذا الإنسان ذاق وعانى مرارة وقسوة حكم الفرد المعبود من دون الله تعالى بدءا من فرعون موسى عليه السلام إلى أن تشرق الشمس من مغربها.

وكأنى بالعربى الفطن الحكيم لم يدرك مساوئ ومهالك ومفاسد حكم الفرد وحسب. وإنما وعى وعلم ظلم وطغيان دولة القوة المادية والعسكرية الواحدة أيضاً. التى تظن الظن السيئ أن العالم كافة يجب أن يدين ويركع لها. ولنظامها السياسى والاقتصادى والاجتماعى، إذا أرادت أن تعيش، وإلا فالطائرات المحملة بأدوات القتل والتدمير والتخريب مستعدة، والسفن الناقلة لهذه الطائرات تجوب المحيطات لمن يعلن عصيان أوامر السيد المهاب، أو لمن يفكر أن يخرج عن صف القطيع.

* * *

إذن البعد عن منهج لا إله إلا الله خسارة كبرى للإنسانية جمعاء لأنه ينتج عن هذا البعد جميع صور الظلم والطغيان والاستبداد السياسى والاقتصادى والسياسى ذات المعايير، المتعددة لأن الحاكم الفرد الكافر بألوهية وربوبية الواحد، ينصب ذاته بديلا للإله المعبود بحق بعد أن نسى بشريته وحياته المحدودة، فهو إذا قال يجب أن يسمع وإذا أمر يجب أن يطاع، وإذا نهى ينبغى أن ينتهى، وإلا فالسيف والسياف والجلاد. ويصدق على مثل هؤلاء الحكام قول القائل:

تـــلـــوا بـــاطـــلا وصـــلـــوا صـــارمـــاً

وقـــالـــوا صـــدقـــنـــا فـــقـــلـــنـــا نـــعـــم

* * *

العدل فى منهج
لا إله إلا الله محمد رسول الله

من الأهداف العليا والعظيمة التى يحرص على تحقيقها دين الوحدانية: العدالة المطلقة، عدالة الحكم. وعدالة الحاكم نحو المحكومين. والمساواة وهى الابنة الشرعية للعدل. وهذان المبدآن العدل والمساواة – طبقًا للتصور الإسلامى – لا يطبقهما نظام من صنع بشر أو دستور وضعى، بينه وبين منهج لا إلا إلا الله محمد رسول الله عداوة وخصومة لدود. ذلك لأن كل قانون مكتوب أو غير مكتوب جعل مصلحة فئة معينة من البشر، فوق كل جميع مصالح البشر. مثل هذا القانون الجائر لابد أن يميز ويفرق الناس على أساس من الأسس المادية والنفعية أو العرقية، أو العنصرية، وهذه المقاييس الظالمة المجحفة. والتى تأباها وتنفر منها آدمية الإنسان، الذى كرمه مبدعه وخالقه سبحانه. لعمارة الكون. فلا عمارة لهذا الكون إلا إذا كان للعدل المطلق المجرد من الأهواء الشخصية سيادة وشمول وعمومية، ولن يوجد مثل هذه العدالة إلا فى شريعة الإسلام حيث إن العدل فى شريعة الإسلام يشمل جميع البشر بصرف النظر عن الدين أو الجنس أو العرق و اللون، فالعدل والأمانة لهما ميزان ومعيار واحد – فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله – لا تفرقة بين المسلم واليهودى، والمسيحى ولذلك نجد الآية الكريمة التالية قد أكدت ذلك ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيراً** ﴾

[النساء: ٥٨] .

وتاريخ الإسلام السياسى والاجتماعى منذ أن أرسى ووضع محمد بن عبد الله ﷺ، اللبنة والنواة الأولى للدولة الإسلامية فى المدينة المنورة، عاصمة الإسلام الأولى، حتى سقوط الخلافة الإسلامية، أجل هذا التاريخ المجيد حافل، وشاهد بمواقف الإسلام الحضارية، أهمها وأخطرها، التطبيق العملى لمبدأى العدالة والمساواة اللتين استظل بظلهما الوارف كل من عاش فى مجتمع إسلامى شريعته، شريعة القرآن والسنة

الصحيحة المطهرة وإليك – قارئى العزيز – هذا الموقف الحضارى من مواقف الإسلام الحضارية المتعددة، التى تؤكد عدالة منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله وشموليتها التى لم تعرف ازدواجية فى أحكامها. فالعدل الإسلامى ليس شعاراً أو عبارات رنانة جوفاء، وإنما هو سلوك وممارسة حياتية يقول الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ** ﴾ [النساء: ١٠٥ – ١١٣].

* * *

يقول علماء التفسير فى سبب نزول هذه الآيات «روى أن نفراً من الأنصار – قتادة ابن النعمان وعمه رفاعة غزوا مع رسول الله ﷺ فى بعض غزواته، فسرقت درع لأحدهم «رفاعة» فحامت الشبهة حول رجل من أهل بيت يقال لهم بنو أبيرق، فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال: إن طعمة بن أبيرق سرق درعى فلما رأى السارق ذلك عمد إلى الدرع، فألقاها فى بيت رجل يهودى (زيد بن السمين) وقال لنفر من عشيرته ذلك، فأخبروا رسول الله ﷺ لكى يبرئ ويتهم اليهودى»[1] وفى حالة ثبوت تهمة السرقة على اليهودى يجب قطع يده تطبيقاً لحد السرقة، ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسب نكالاً من الله** ﴾ ولا فرق فى تطبيق شرع الله تعالى بين المسلم وغير المسلم. مادام غير المسلم هذا يعيش فى كنف الدولة الإسلامية. إلا أن

---

(١) انظر مفاتيح الغيب للإمام فخر الرازى جـ ٥.

عدالة السماء وحكم الله وشرعه الحكيم تأبى إلا أن يضع الأمور فى نصابها الصحيح. ليأخذ كل ذى حق حقه.

فكان نزول تلك الآيات الكريمة مبرئة اليهودى (زين بن السمين) من تهمة سرقة «الدرع» معلنة للعالمين فى جميع العصور والأزمنة القادمة سيادة مبدأ وقيمة العدل والمساواة كعنصر وأساس راسخ فى بناء حضارة العدل الإسلامية القائمة على منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وليس الأمر تبرئة يهودى من سرقة «درع» وحسب. وإنما للقضية أبعاد وغايات أسمى وأكبر من هذه البراءة، ولا نستطيع أن ندرك هذه الأبعاد وتلك الغايات إلا إذا وقفنا ودرسنا تاريخ اليهود وموقفهم العدائى من الإسلام ومن نبى الإسلام صلوات الله وسلامه عليه.

كما أنه ينبغى علينا أن نعلم – فى الوقت نفسه – موقف الطرف الأخر المؤيد والمناصر للإسلام ولرسوله ﷺ والذى تمثل فى الأنصار المناقض للموقف اليهودى الكافر بدعوة التوحيد.

فبعد أن أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام – من قبل رب العالمين – بإعلان دعوة التوحيد بعد أن كانت هذه الدعوة سرية فى مبدأ أمرها إلى أن نزل الأمر الإلهى بإعلان الدعوة فى قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]. وحين أعلن بالدعوة ﷺ فى مكة وجد معارضة وصداً وعناداً من مشركى مكة فكانت الهجرة إلى المدينة التى استقبل من ساكنيها الأنصار استقبال المتلهف الشائق لرسول الإسلام ونبيه عليه السلام، ذلك أن اليهود كانوا يتمنون أن يكون خاتم الأنبياء والمرسلين من بين أظهرهم فقد قالوا لأهل المدينة إن هذا النبى سيبعث من اليهود وسوف نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما خيب الله ظنهم أضمروا كل عداوة وبغضاء لرسول الإسلام والمسلمين كافة، وكما وصفهم الله تبارك وتعالى فى كتابه الحكيم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢].

كما أن هؤلاء اليهود يهود المدينة كانوا السبب المباشر فى بذر وإيقاد نار الفتنة – قبل الإسلام – بين الأوس والخزرج وهما القبيلتان الكبريان اللتان تألفت منهما المدينة

قبل الإسلام وبعد الهجرة النبوية كانوا هم الأنصار الذين آمنوا برسول الله عليه الصلاة والسلام وبالكتاب الذى أنزل إليه ونصروه على أعدائه وأعداء الإسلام من المشركين واليهود.

وطعمة بين أبيرق من الأنصار، أى من الفئة أو من الجبهة المؤيدة لرسول الله ﷺ فى دعوته. وهو فى الوقت نفسه سارق الدرع، ولكى يبرئ نفسه من تهمة السرقة ألقى هذه الدرع التى سرقها فى بيت «زيد بن السمين» الذى ينتمى إلى الفريق الذى يناصب العداء ويضمر كل حقد وضغينة وبغضاء للرسول عليه الصلاة والسلام وللإسلام والمسلمين وبموازين البشر الترابية ومقاييس الانحياز الأعمى وحضارة الكيل بمكيالين كما سيأتى بيانه ومبدأ انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا بمفهومه الجاهلى الظالم، كان المقتضى الجائر نصرة «طعمة» أو تبرئته من جريمة السرقة، وإلصاق هذه التهمة بزيد بن السمين بعد إدانته وتجريمه.

نعم يحدث ذلك. يحدث إدانة البرئ. وتبرئة المجرم فى كل منهج وسياسة وشريعة لاتحكم بمنهج لا إله إلا الله محمد رسول الله ولكن منهج التوحيد الإسلامى – الذى لن يخضع أو يتأثر بالعداوة أو المودة كما أكدنا ذلك سابقًا – لا يحكم ولا يقر إلا بالقصد والعدل والإنصاف.. كما أكدت ذلك واقعة أو قضية طعمة بن أبيرق وزيد بن السمين فقد برأ القرآن الكريم اليهودى وإن كان عدوًا للإسلام وأدان الأنصارى وإن كان من الصف المسلم ولم يكتف القرآن الكريم بتقرير وإعلان براءة «المتهم» وإنما وجه تحذيرًا شديدًا لكل من تسول له نفسه فى الصاق أو تلفيق تهمة لبرئ أيًا كان هذا البرئ، ذلك أن تلفيق التهم وتبرئة الجانى أيًا كان هذا الجانى ضد مبدأ، ومنهج لا إله إلا الله محمد رسول الله يقول أصدق القائلين سبحانه وتعالى قبل أن ينهى هذه القصة ﴿**وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا**﴾ [النساء:١١٣].

* * *

وعدل الإسلام كان هكذا – دائمًا – نظيفًا نقيًا من شبهات المحاباة أو الانحياز أو المجاملة التى تستهدف أول ما تستهدف إرضاء البشر أو التقرب إليهم طمعًا فى غرض دنيوى زائل جاهلة أو متجاهلة أن الله تعالى رقيب عليه محيط بما يعمل. ولذلك لن

يتحقق العدل على هذه الأرض إلا بتطبيق منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله، لأن أهم وأكبر مصدر لشقاء الإنسان وتعاسته فى هذه الدنيا، هو غياب العدالة والمساواة والإنصاف فى جميع مجالات وميادين الحياة، السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية والأسرية أيضاً – كما أن شيوع الظلم والجور وسياسة المعايير المزدوجة هو الباعث والمبرر القوى لنشوب الحروب العالمية والإقليمية، والصراعات العرقية، والدينية، كما أنه كذلك العامل المباشر لانتشار الجرائم وسفك الدماء على مستوى حياة المجتمع الشخصية.

فالقرآن الدستور الخالد، حين يأمر ويدعو إلى إقامة دولة العدل والمساواة. محارباً ومحذراً من جميع صور وأشكال الظلم والطغيان والاستبعاد، لا يكتفى بهذه الدعوة إلى الحق، ومحاربة الباطل. وإنما قبل ذلك، وبعد ذلك يطبق مبادئ العدل وينفذها لكى يتفيأ ويستظل وينعم بظلال العدل الإسلامى العدو والصديق المؤمن والكافر. الرجل والمرأة. وقضية طعمة بن الأبيرق، وزيد بن السمين دليل حى وصادق وملموس، وممارسة عملية لعدل الإسلام، ولا يزعمن مكابر فى قلبه مرض، أو على بصره غشاوة أن هذه الواقعة التى تحدثنا عنها، ليست القاعدة، وإنما هى استثناء من هذه القاعدة. ونقول لأمثال هؤلاء المجادلين بالباطل إنها ليست استثناء أو رمية من غير رام بل هى القاعدة. والقاعدة الكلية التى ظلت شاملة لجميع مناحى الحياة الإسلامية التى كان الحكم فيها لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله محمد ﷺ اللذين هما الأساس والموجه للحضارة الإسلامية. تلك الحضارة التى لم تعرف سياسة الكيل بمكاييل مختلفة ولا المعايير المزدوجة، لأن التطفيف والغش والتدليس إذا كانت من المحرمات فى شريعة الإسلام فى مجال البيع والشراء وعلى مستوى حياة الناس الشخصية فمنعها وحرمتها فى مجال حقوق الناس أولى وأجدر. ونعنى بالناس كل الناس. وللتدليل على استمرارية عدالة الإسلام فى جميع العهود التاريخية نسوق هذه الواقعة التى كانت أحداثها فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه. وفى ولاية عمرو بن العاص رضى الله عنه على مصر.

فقد تسابق ابن عمرو بن العاص وقبطى من عامة الشعب وكانت نتيجة هذه المسابقة فى مصلحة القبطى وذلك بفوزه على ابن حاكم مصر عمرو بن العاص فما

كان من ابن عمرو بن العاص إلا أن قام بضرب القبطى الفائز عليه قائلا له: خذها وأنا ابن الأكرمين!!

وذهب أبو القبطى هذا إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب شاكيًا والى مصر وابنه. فما إن سمع عمر شكواه حتى استدعى عمرو بن العاص وابنه من مصر. وأمر ابن القبطى فاقتص من ابن والى مصر عمرو بن العاص ولم يكتف خليفة المسلمين بذلك، بل طلب من القبطى أن يضرب عمرو بن العاص قائلاً له إنما ضربك بسلطان أبيه إلا أن القبطى رفض ذلك. وحينئذ قال عمر بن الخطاب كلمته الخالدة إلى قيام الساعة: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

وقد حكم عمر بن الخطاب الخليفة الثانى للمسلمين فى هذه القضية مقتديا بما قضى به كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد ﷺ فى قضية شبيهة بهذه القضية. تلكم هى قضية طعمة بن أبيرق وزيد بن السمين الآنفة الذكر.

نعم حكم عمر بن الخطاب امتثالاً وتطبيقًا لقوله تعالى: ﴿ **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾، ومفهوم العدل ومنطوقة وماهيته يقضى بالمساواة بين الخصوم، وعدم التمييز، والتفرقة بينهم على أساس الجنس أو الدين أو العرق، أو اللون. هذه هى الأسس الراسخة لحضارة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

هذه الأسس الحضارية طبقها المسلمون الأوائل طبقها الحكام صحابة رسول الله ﷺ على أنفسهم قبل أن يطالبوا غيرهم بتطبيقها فأليك هذه الواقعة الخالدة التى تتجلى فيها معانى العدالة الإسلامية والمساواة الحقيقية بين الناس جميعًا لا فرق بين يهودى وبين رجل مثل على بن أبى طالب أول من أسلم من الصبيان، ابن عم رسول الله ﷺ ومن المجاهدين الذين جاهدوا فى الله حق جهاده، وحاربوا أعداء الإسلام حتى كتب الله تعالى النصر لدينه الحنيف.

ورغم مكانة على بن أبى طالب وفضله فى الدفاع عن الإسلام والمسلمين وقرابته لنبى الإسلام عليه السلام فقد مثل بين يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعد أن تقدم يهودى بشكوى ضده كرم الله وجهه. وقد خاطب عمر بن الخطاب اليهودى باسمه، وخاطب عليًا بكنيته فقال له: يا أبا الحسن – حسب عادته فى خطابه معه.

« والخطاب بالكنية أسلوب من أساليب التعظيم للمخاطب » فظهرت آثار الغضب على وجه عليّ فقال له عمر: أكرهت أن يكون اليهودى خصمك وأن تمثل معه أمام القضاء فقال: لا ولكننى غضبت لأنك لم تسو بينى وبينه فى المخاطبة. فخاطبته باسمه، وخاطبتنى بكنيتى ».

وهذا عمر بن الخطاب المنتصر بعد فتح بيت المقدس يقر بحقوق أهل إيلياء الأمنية والدينية والمالية فقد أعطاهم وثيقة كان مما جاء فيها « هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أمناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا يسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبانهم ولا من شيء من أموالهم ».

وعمر بن الخطاب الخليفة الثانى – رضى الله عنه – كان فى وثيقته هذه مطبقاً ومنفذاً لوصايا رسول الإسلام محمد ﷺ فى معاملة الذميين والمعاهدين، فمن وصاياه – عليه الصلاة والسلام – فى حقوق المعاهدين قوله : « من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا خصيمه يوم القيامة » ويقول ﷺ : « من قذف ذمياً حد له يوم القيامة بسياط من نار ».

ويقول عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص أثناء توليته حكم مصر مشيراً إلى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام السابق: « إن معك أهل الذمة والعهد فاحذر يا عمرو أن يكون رسول الله خصمك ».

هذه هى مبادئ وقيم الحضارة الإسلامية فى معاملة الذميين والمعاهدين الذين جاء الإسلام إلى بلادهم لنشر عقيدة التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة، دون إكراه أحد منهم على اعتناق الإسلام فمن دخل فى دين الله تعالى فبمحض اختياره، وكامل إرادته الحرة ومن آثر دين آبائه وأجداده فله ذلك.

هذا هو خلق الإسلام، وحسن معاملته الكريمة للذميين والمعاهدين وذلك بالحفاظ على حقوقهم الدينية والأمنية والاجتماعية والاقتصادية، أين ذلك من حكم المستعمر الغاصب الذى أكتوى بناره كثير من الشعوب الإسلامية والعربية، وما زالت هذه الشعوب تكابد وتعانى من مرارة المستعمرين الجدد مهما ارتدوا قناعات براقة ربما تناسب العصر الحديث. وتستروا بمبادئ مزيفة، مرة مدعين بأنهم يحاربون الإرهاب،

ومرة أخرى بحظر أسلحة الدمار الشامل، ومرة ثالثة باسم الحفاظ على حقوق الأقليات، وعلى الشعوب المغلوب على أمرها أن تذعن وترضخ، وإلا فاالتهديد بقطع المعونات المالية التى تعود فوائدها الباهظة عليهم، والدول التى تريد أن تعتمد ذاتياً على اقتصادها ومواردها الطبيعية، هناك سلاح آخر مدمر لتأديبها. وذلك هو سلاح وضرب الاقتصاد القومى تمهيداً لتجويع هؤلاء الشعوب، حتى ارغامها على التركيع والانقياد.

نعم . هذه «حضارتهم»، وتلك حضارتنا، وبمفهوم الإسلام للحضارة ليست «حضارتهم» إنما هى جشعهم وطمعهم وعبادتهم للمال وللذات والشهوات.

لأن مفهوم الحضارة الإسلامية يختلف عن مفهوم الحضارة الغربى.

الحضارة الإسلامية هى – باختصار – التطبيق العملى لشريعة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وقد استعرضنا موقف الإسلام من الذميين، والمعاهدين فما موقف هذا الدين من المشرك عابد الوثن أو الصنم إنه موقف إنسانى يحترم أدمية هذا الإنسان مهما كان مشركاً أو عدواً للإسلام والمسلمين لا يتورع رفع السيف ضد مسلم، وقتله إن استطاع، إن هذا المشرك إذا جاء إلى نبى الإسلام – بعد انقضاء الأشهر الحرم – ليسمع كلام الله تعالى، مجرد سماع، وله بعد ذلك أن يؤمن بهذا الدين الجديد، أو لا يؤمن، فما حكم الإسلام فى شأن مثل هذا الرجل إليك هذه الواقعة التاريخية.

«عن ابن عباس أنه قال: إن رجلاً من المشركين قال لعلى بن أبى طالب إن أردنا أن نأتى الرسول بعد انقضاء هذا الأجل[1] لسماع كلام الله أو لحاجة أخرى فهل نُقْتل فقال على: لا إن الله تعالى يقول: ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون** ﴾ [التوبة: ٢].

إن أسس الحضارة الإسلامية مبنية وقائمة على عنصرين مهمين هما: تعظيم أوامر الله عز وجل. والحرص على حرمة الخلق، ومسمى الخلق يتضمن جميع المخلوقات والكائنات الحية.

---

(١) انقضاء الأشهر الحرم. انظر تفسير الإمام الرازى.

فهذا المشرك إذا جاء لسماع كلام الله تعالى من حقه فى شرع الإسلام أن يُوفر له الأمن والأمان، الكفيلان بسماع كلام الله، ثم حراسته – لئلا يتعرض لأذى – حتى يصل إلى مأمنه رغم أنه يحتمل أن يكون ممن آذى المسلمين.

وقد امتد عدل الإسلام – العدل المطلق – امتدت عدالة الإسلام جميع عصور التاريخ الإسلامى بدءا من العهد النبوى وحتى سقوط الخلافة الإسلامية. فهذا هو عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين الأموى والذى عرف بخامس الخلفاء الراشدين، وهذا هو موقفه عندما شكا إليه أهل سمرقند ظلم واليهم قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين وتحامله عليهم وذلك بإخراجهم من أرضهم، وعلى الفور أمر عمر بن عبد العزيز –رضى الله عنه – قاضيه سليمان بن أبى السرى أن يحكم فى أمرهم فحكم بخروج العرب من أرضهم إلى معسكراتهم وتنابذهم[1] على سواء، فيكون صلحاً جديداً، أو ظفراً عنوة فقال أهل الصفد (اقليم سمرقند) بل نرضى ولا نحدث حرباً وتراضوا بذلك[2].

والحكم الذى أرتآه عمر بن عبد العزيز ونفذه قاضيه حكم إسلامى عادل منصف لا انحياز فيه للمسلمين المنتصرين، وإنما هو قرآنى وصادر من مشكاة النبوة المحمدية.

ولما كان هذا الحكم بهذه المقومات، وهذه الخصائص كان وقعه فى قلوب الشاكين المظلومين موقع القبول والرضا والاستجابة، فقد استقبلوه بقولهم «بل نرضى بما كان ولا نحدث حرباً وتراضوا بذلك».

نعم . هذه هى حضارة الإسلام . . حضارة أصولها نابعة من كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وسنة من لا ينطق عن الهوى.

* * *

---

(١) تنابذ القوم: تفارقوا عن عداوة.

(٢) تاريخ الطبرى.

سياسة المعايير المزدوجة

استعرضنا فيما سبق، عدالة الإسلام المطلقة، التى انفرد بها منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله، وعلمنا مدى أهمية وخطورة هذا المبدأ الايجابية والبناءة فى حياة الفرد والمجتمع.

ذلك أن العدل عامل استقرار، وعنصر مهم فى خلق الحب والمودة والوئام بين بنى الإنسان، وإذا كان العدل كذلك أى قيمة كبرى فعالة فإن الظلم والاعتداء، وأكل أموال الناس بالباطل من عوامل الهدم والتدمير التى حاربها الإسلام فالإسلام دين يدعو إلى الحضارة والعمران والبناء، الظلم والطغيان من الرذائل التى قاومها منهج التوحيد.

والإنسانية منذ أن افتقرت وحرمت من نعمة العدل الإسلامى والشقاء، والتعاسة، والتشريد، لازمتها، وعايشتها ويا ليت شيوع الإجحاف، والجور، وضياع الحقوق الضرورية مقتصرا على مستوى أفراد محدودين، أو مجتمعات صغيرة بل إن شعوبا ذات حضارة عريقة وتاريخ مجيد، كانت ضحية لسياسة المكاييل والموازين المتباينة، هذه السياسة التى لم ترحم صغيرا ولا مريضا ولا شيخا فانيا وذلك بحرمان هؤلاء جميعا من الغذاء الذى يسد الرمق، ومن الدواء الضرورى والملح.

ولا ندرى كل هذا العدوان المتوحش لمصلحة من انه لمصلحة وارضاء دويلة ضد شعب كان ضحية قرار جائر يصدر من دولة تريد أن تسخر كل من فى الأرض لأغراضها السياسية والاقتصادية ولا تريد إلا أن تكون سيدة العالم وعلى الجميع السمع والطاعة والانصياع لإرادتها وإلا سيكون خارجا عن الصف. والخروج عن الصف عدو لدود لهذه الدولة، كما يقول نعوم تشومسكى(١).

* * *

وسوف نقدم نماذج من سياسة الولايات المتحدة تجاه دول. هذه السياسة الأمريكية نقف من خلالها وندرك كيف أنها مناقضة ومعادية لحضارة الإسلام التى قدمنا صورا حية ومواقف تاريخية منها، جديرة أن تطبق وتنفذ وتمارس، كما كانت مطبقة ومنفذة

(١) يهودى أمريكى الجنسية.

وممارسة فى وقت ما. فسعد بها المسلم وغير المسلم الصديق وغير الصديق، لأن المنهج الإسلامى ليس مقصورا نتائجه الايجابية على المسلمين وحدهم – كما أكدنا ذلك أكثر من مرة – وإنما هو حياة لكل الناس مهما اختلفوا فى عقائدهم الدينية، وانتمائهم العرقى أو الجنسى.

ومما سبق عرضه تأكد لنا – أيضا – بالوقائع والمواقف التاريخية الموثوقة أن الإسلام لم يعرف فى تاريخه السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى ازدواجية القرارات والأحكام. وإنما الإسلام يقر مبدأ واحدا هو نصرة الحق والعدالة والانصاف. ولا حضارة فى الأرض فى أى عصر من العصور ما دامت العدالة مفتقدة والظلم والعسف والجور حكما وسيدا ودستورا ونحن إذا استعرضنا مواقف الولايات المتحدة تجاه الأمة العربية والإسلامية نراها ذات طابع انحيازى لطرف واحد على حساب أطراف ذوى حقوق مكتسبة، ومؤيدة تاريخيا وسياديا، وقانونيا وحضاريا.

فالولايات المتحدة الأمريكية وافقت على أن تمتلك إسرائيل السلاح النووى، أو أسلحة الدمار الشامل، بالإضافة إلى جميع الأسلحة الكيميائية والميكروبية. وحرمت ذلك على جميع الدول العربية حتى ولو للدفاع عن نفسها. ولم تكتف أمريكا بذلك – بل أمدت وتمد إسرائيل بالأسلحة الفعالة من أحدث طائرات الترسانة الأمريكية. زائد المعونات المادية والمالية الأخرى. كل ذلك لكى تستمر إسرائيل متفوقة على الدول العربية كافة. وذات ذراع طويلة تستطيع أن تصل إلى أقصى مدينة عربية.

لقد قرر القانون الدولى أن الأصل فى العلاقات الدولية السلم ولا يلجأ إلى الحرب إلا عند الضرورة القصوى أى بعد فشل المساعى السلمية حلا للمشكلات الدولية والاقليمية وإسرائيل حين شنت حربا ضارية على ثلاث دول عربية عام ١٩٦٧ اكتفت المنظمة الدولية بإصدار قرار صيغ بطريقة خبيثة يخدم المعتدى أكثر مما يخدم المعتدى عليه.

وقبل ذلك وبعد كل ذلك لم تتحرك الولايات المتحدة وحلفاؤها عسكريا لمنع هذا الاعتداء، كما حدث فى حرب الخليج الأخيرة حين جيشت أمريكا جيوش حلفائها لطرد العراق من الكويت لماذا؟؟!!

ندع الإجابة لمفكر يهودى أمريكى الجنسية الانصاف والحيدة والموضوعية والبحث عن الحقيقة المجردة طبيعته وسمة فكره وعقيدته السياسية يقول: «عندما غزا العراق الكويت فى أغسطس عام ١٩٩٠، أدان مجلس الأمن العراق وفرض عليه حظرا فوريا. لماذا كان رد الفعل سريعا هكذا؟ ولماذا كان قويا بتلك الدرجة غير المسبوقة؟

«لدى تحالف حكومة الولايات المتحدة مع الإعلام الأمريكى إجابة جاهزة لذلك مؤداها: **أولاً**: مثل الاعتداء العراقى جريمة فريدة، مما استحق رد فعل خشن بطريقة فريدة و«تقف أمريكا - كما وقفت دائما - ضد العدوان، وضد اولئك الذين يستخدمون القوة ويخرقون القانون هكذا أخبرنا «بوش» غازى بنما. والرئيس الوحيد فى العالم الذى أدانته محكمة العدل الدولية، بسبب استخدامه غير القانونى للقوة وذلك فى سياق إدانتها للاعتداء الأمريكى على نيكاراجوا».

«**ثانياً**: كررت وسائل الإعلام والطبقات المتعلمة - وراء إدارة بوش - فى مناجاة ابتهال وشكر أن الأمم المتحدة أصبحت - أخيرا - قادرة على أن تقوم بدورها الذى أنشئت من أجله، بعد أن استحال ذلك أيام الحرب الباردة».

«ولم تصل فظاعاته - صدام - فى الكويت لما وصلت إليه فظاعات أصدقائنا فى أمريكا الوسطى ولا الهند الصينية (ولا ننسى أننا فى وقت من الأوقات دعمنا القاتل الذى يندر أن يأتى التاريخ بأمثاله بول بوت) ولا أندونيسيا».

«أما مسألة حمدا لله على أن الأمم المتحدة أصبحت أخيرا قادرة على أداء دورها، فالحقائق التى تفند ذلك، ولكن يعتم عليها حماة المواءمة السياسية، فلسنوات طويلة أعاقت القوى العظمى عمل الأمم المتحدة، خصوصا الولايات المتحدة، وليس الاتحاد السوفيتى ولا العالم الثالث، ومنذ عام ١٩٧٠، عطلت الولايات المتحدة قرارات مجلس الأمن باستخدامها «الفيتو» أكثر من أى دولة أخرى، وتأتى بريطانيا فى المركز الثانى، وفرنسا الثالث»

«وسجلنا فى الجمعية العمومية تشابه لسجلنا فى مجلس الأمن أما أقصى ما استطاعه العالم الثالث فهو نداءات الضعيف للقوى بأن يراعى القوانين الدولية».

لماذا لم يكن الحل الدبلوماسى مطلوبا؟

«بعد أسابيع قليلة من غزو العراق للكويت فى ٢ أغسطس ١٩٩٠، بدأت تظهر بوادر تسوية سلمية، فقد صدر قرار مجلس الأمن رقم ٦٦٠ والذى يدعو العراق للانسحاب من الكويت، مع مفاوضات مباشرة للجانبين حول مسألة الحدود. وقد كان مجلس الأمن يبحث عرضا عراقيا بالانسحاب من الكويت فى منتصف الشهر وظهر أن هناك مسألتين: الأولى منفذ للعراق على الخليج، بمقتضى اتفاقية أو ما أشبه على منطقتين غير مأهولتين بالسكان، يغطيهما المد وينحسر عنهما الجزر، أخذتهما الكويت من البريطانيين خلال وجودهم فى المنطقة. والثانية حل النزاع الخاص بحقل بترول داخل حدود الكويت بميلين أو فى المنطقة التى أثار أثار العراقيون النزاع عليها.

«رفضت الولايات المتحدة عرض العراق أى مفاوضات. وفى ٢٢ أغسطس نشرت النيويورك تايمز **أن إدارة «بوش» مصممة على إيقاف المسار الدبلوماسى خوفا من أن يفتت الأزمة»**

«آخر عرض أعلن عنه قبل قصف العراق تضمن – كما أفاد المسئولون الأمريكيون فى ٢ يناير عام ١٩٩١ – **انسحابا عراقيا كاملا من الكويت – دون التطرق لمسألة الحدود** – ولكنه ارتبط بمسائل أخرى مثل: القضاء على أسلحة الدمار الشامل فى المنطقة كلها (بما فى ذلك إسرائيل وتنفيذ كل قرارات الأمم المتحدة الصادرة للمنطقة بما فى ذلك القرار رقم ٤٢٥ الصادر فى مارس ١٩٧٨ ويقضى بانسحاب إسرائيل غير المشروط من جنوب لبنان).

«**ردت الولايات المتحدة بأنه لا سبيل للدبلوماسية!** أخفى الإعلام الأمريكى الحقائق – باستثناء نيوزداى – وأشاد بالمثل العليا للرئيس المبجل «بوش».

«**برفضها للدبلوماسية، حققت الولايات المتحدة أهدافها الرئيسية فى الخليج**».

«**قبضت على مصادر بترول الشرق الأوسط، وقبضنا أرباحها الهائلة لتحسين اقتصادنا واقتصاد حليفتنا بريطانيا لذلك أحكمنا سيطرتنا على إمدادات البترول للعالم ودعمنا سيادتنا عليه، وأعطينا للعالم درسا فى أن الحكم للأقوى**[١]»

---

(١) يتصرف من كتاب «ماذا يريد العم سام» تأليف: نعوم تشومسكى ترجمة: الأستاذ عادل المعلم.

نعم إن الحكم للأقوى! للأقوى عسكريا الذى يملك أسلحة الدمار الشامل والسلاح النووى المدمر، وإن لم يستخدما فللتهديد والتلويح باستخدامه عند الحاجة والضرورة.

إن الولايات المتحدة لم توافق على الحل الدبلوماسى الذى كان متاحا - كما أكد ذلك نعوم تشومسكى - بعد أن قبل العراق الانسحاب من الكويت، بشهادة تشومسكى أيضا.

ولكن الحل الدبلوماسى هذا لم يكن يحقق لأمريكا استعمار الخليج، فكان من الطبيعى أن ترفضه وبشدة.

وكما قلنا سابقا إن القانون الدولى يجرم اللجوء إلى الحرب حلا للمشكلات الدولية، ولاسيما إذا كان الحل الدبلوماسى موجودا نعم هذا نص القانون الدولى، ولكن متى كانت القوانين تطبق على الأقوياء، إن مثل هذه القوانين تنفذ على الضعفاء فقط! مثل حد السرقة فى الأمم السابقة على الإسلام كما قال أستاذ البشرية محمد بن عبد الله ﷺ «كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الفقير أقاموا عليه الحد».

* * *

لا اعتراض لأحد على الادانة العربية والدولية للغزو العراقى للكويت وإن هذا الغزو ضد جميع الأعراف الإنسانية والقوانين الدولية ولكن الاعتراض كل الاعتراض على حل هذه المشكلة، مشكلة الغزو العراقى بالقوة العسكرية - ما دام الحل عن طريق الحوار السياسى والمفاوضات ممكنا، فاللجوء إلى الضربات العسكرية كان ارضاء وتلبية للأهواء السياسية والاقتصادية للإدارة الأمريكية ومنها استعمار الكويت والسيطرة على امدادات البترول وقد تحقق لهم ذلك واثبتوا للعالم أن الحكم للأقوى بشهادة الأستاذ نعوم تشومسكى.

وغرور القوة وصلف الجبروت العسكرى الأمريكى لم يكتف ولم يقنع بكل ذلك، وإنما هم مستمرون فى ضرباتهم المجنونة لشعب العراق تحت ذريعة القضاء على أسلحة الدمار الشامل لدى العراق، ويدفع ثمن هذه الغارات الجوية الطفل العراقى الذى لا

يحد غذاء ولا دواء، ولاسيما بعد تفشى الأمراض الخبيثة بسبب هذه الأسلحة التى يختبر مدى فاعليتها ومدى تدميرها وإن ارتفع صوت بالاحتجاج أو إدانة أعمالهم الإجرامية قيل لك إنهم يستهدفون القضاء على أسلحة الدمار الشامل العراقى.

نعم أنهم يريدون القضاء على أسلحة الدمار الشامل التى يملكها العراق!! هكذا! وعلى بعد كيلو مترات من العراق دولة تمتلك جميع الأسلحة النووية والميكروبية والكيمائية. أسلحة فى مقدورها أن تنشر الخراب والدمار وكل ما «يجود» به السلاح النووى من أمراض سرطانية وغير سرطانية تتوارثها الأجيال القادمة!!

ولا غرابة فى ذلك! لأننا تعيش فى عالم كافر بسياسة العدل الإسلامى الذى لم يعرف فى تاريخه الطويل سياسة الكيل بمكاييل متعددة، كما بسطنا القول سلفا، وأثبتناها بالوثائق والأسانيد التاريخية المؤكدة.

نعم لا غرابة فى ذلك! لأننا نحكم بسياسة المعايير المزدوجة أو السياسية الانحيازية، وقد حكمت هذه السياسة الظالمة لدولة أن تمتلك جميع وسائل الفناء والموت والتدمير على حساب ليست دولة العراق وحسب، وإنما على حساب دول منطقة الشرق الأوسط جميعها ذات العشرات من ملايين البشر.

هذه الممارسات الظالمة لحكومات الولايات المتحدة حرمت على بلابل هذه المنطقة الدوح والغناء ما حللته لصقور وغربان إسرائيل.

ونحن المسلمين فى الشرق والغرب نستحق هذا المصير المخزى والمهين والمذل، نستحق ذلك المصير لأننا ابتعدنا وتركنا منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله وراء ظهورنا، هذا المنهج الذى حقق لنا فى الماضى القريب العزة والمنعة والقوة، دون أن تعنى تلك العزة والمنعة والقوة الظلم والطغيان والعدوان والصلف والغرور التى هى سمة عالم أحاديالقطبية، عالم يدعو إلى صدام الحضارات وتناحرها.

نقول نحن جديرون وأهل لما آل إليه عالمنا الإسلامى لأن هذا المصير، والمآل السيئ، قد حذرنا منه رسولنا الكريم محمد ﷺ، منذ أربعة عشر قرنا، بقوله :« تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، قالوا أو من قلة نحن يومئذ، يا رسول الله، قال: لا. أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل.

ولكننا فى الوقت نفسه، ورغم هذا الليل المظلم الكئيب، ليل الظلم الطويل وعلى الرغم من جبروت النظام، أو القوة الأحادية القطبية. بعد سقوط دولة الكفر والإلحاد والشيوعية، والتى تعتقد أنها سيدة الأنظمة العالمية. وأن جميع الشعوب والدول الأخرى، عبيد لها، ولإرادتها، ولسياساتها ذات المعايير المتعددة.

هذا النظام الذى يستطيع أن يستصدر قراراً ذا طبيعة «حضارية» لأنه صادر من منظمة دولية، مثل مجلس الأمن، ولو كان هذا القرار ظالما، أو ليس فى مصلحة دولة أو دول، كما أنه يستطيع أن يمنع استصدار القرار من هذه المنظمة، ولو كان هذا القرار فى مصلحة دولة معينة. وذلك باستخدام حق «الفيتو» المكفول لدول دون دول.

نقول رغم كل هذه المعوقات التى تحول دون تحقيق ونشر المساواة والعدالة السياسية، والاقتصادية، والعسكرية رغم ذلك نحن مؤمنون وواثقون – بمشيئة الله تعالى بشروق شمس العدل الإسلامى، الذى ستبدد ليل الغطرسة الدامس وتعيد الحقوق إلى أصحابها الشرعيين.

والذى يدعونا ويدفعنا إلى هذا الإيمان وتلك الثقة باعثان مهمان جوهريان، أولهما أن اليأس والقنوط خصلتان مرفوضتان فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله، سواء كان اليأس والقنوط على مستوى الحياة الشخصية للأفراد أو على مستوى السياسة العامة يقول الله تعالى على لسان سيدنا يعقوب عليه السلام ﴿**وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [يوسف: ٨٧]. ويقول تباركت أسماؤه فى معرض وعده الحق الذى لا يخلف ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [النور: ٥٥]. ولكن كل أمل لا يتحقق إلا بالعمل الجاد المخلص الدءوب. وأمل المسلمين فى القوة والعزة والسؤدد لن يأتى إلا بالعودة إلى قرآنهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام ونعنى بالعودة التطبيق العملى والممارسة الحياتية لما فى الكتاب الحكيم والسنة الصحيحة.

والباعث الثانى هو دلالة التاريخ الإنسانى وما يشير إليه مصير الإمبراطوريات الكبرى قديما وحديثا:

١- قديما كانت الامبراطوريتان الفارسية والرومانية اللتان استمرتا قرونا عديدة وامتلكتا مصير كثير من شعوب الأرض، «فالامبراطورية الرومانية كانت تضم كل حوض البحر المتوسط والامبراطورية الفارسية كانت تمتد من نهر الفرات وحتى حدود الهند(١)» ورغم كل ذلك انهارت وسقطت هاتان الامبراطوريتان. ورب قائل يقول إن هاتين الامبراطوريتين لم تكن لديهما من وسائل العلم والتكنولوجيا والتطور المذهل فى علوم الفضاء والاتصالات والصواريخ والأقمار الصناعية وغيرها التى تميز بها عصرنا الحديث ونقول داحضين هذا الاعتراض بأنها أى الامبراطوريتين بالقياس إلى عصرهما كانتا تملكان جميع الامكانات العلمية من أسلحة مدمرة تناسب تلك الأزمنة الغابرة. والذى يشهد على ذلك شاهد عدل صادق وصدوق ذلكم هو القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

إن القرآن حين تحدث عن بعض الأمم السابقة للروم والفرس بقرون وقرون أشار ضمنا إلى أن تلك الأمم كانت لها من الوسائل التى اتخذت من السهول قصورا، وكيف أنها كانت تنحت من الجبال بيوتا.

وتحدث عن قوم عاد ﴿**إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ**﴾ [الفجر: ٧-١٠].

فالعصر الحديث متقدم علميا بالنسبة إلى تلك العصور السابقة هذا صحيح ولا جدال فيه. وتلك الحضارات الغابرة كانت متقدمة علميا بالنسبة لحضارات أخرى قد سبقتها، فالمقارنة بين حضارة العصر الحديث وتلك الحضارات مقارنة غير دقيقة إن لم تكن ظالمة، وذلك للبون والفارق الزمنى والمكانى العظيمين.

٢- حديثا أ- الامبراطورية البريطانية أو المملكة التى لا تغيب عن ممتلكاتها الشمس، كما كان يطلق عليها فى ذلك الوقت. وكانت تلقب أيضا بسيدة البحار. وبريطانيا العظمى.

---

(١) دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية د. وسام عبد العزيز فرج.

أين هذا المجد والسلطان والنفوذ البريطانى اليوم. لقد ذهب كل ذلك تذروه الرياح. وصارت بريطانيا تلك ذيلا ذليلا وتابعة ومسودة بعد أن كانت متبوعة وسيدة تأمر وتنهى من داون ستريت فيأتمر العالم بأمرها وينتهى لنهيها.

ب- الاتحاد السوفيتى: القوة العلمية والعسكرية والفضائية الضارية سابقا التى طالما ارقت وأرعبت وأرهبت حكومات الولايات المتحدة التى ما كانت تجرؤ ببنت شفة أمام غزو سوفيتى لدولة من دول حلف وارسو، سوى لطم الخدود وشق الجيوب وحينما أطلق الاتحاد السوفيتى القمر الفضائى الأول فى أوائل الستينيات أسقط فى يد حكام أمريكا خشية وهلعا من أن مثل هذا القمر سوف يجرى استخدامه فى الحرب الهجومية عليهم، وكما صنعت الامبراطوريتان الرومانية والفارسية فى تقسيمهما للعالم صنع الاتحاد السوفيتى - وقتذاك - وأمريكا بما يقدمانه من معونات للدول المتخلفة وليست النامية، فحكام دول فى الشرق والغرب عملاء لأمريكا. وحكام آخرون -كانوا - عملاء للاتحاد السوفيتى. ثم ماذا بعد؟

ماذا حدث لهذه الدولة إحدى القوتين العظميين، التى تملك السلاح النووى والصواريخ العابرة القارات. لقد انهارت وسقطت وانمحت، وصارت تتسول الرغيف ومن من؟ من الد أعدائها بالأمس القريب.

* * *

فيا حكومات أمريكا إن الامبراطوريتين الفارسية والرومانية زالت سطوتهما وتفرق شملهما. وإن بريطانيا العظمى غربت شمسها إلى الأبد التى لم تكن تغيب. وإن الاتحاد السوفيتى الذى كان يوما ما منافسا لكم هوى فى واد سحيق.

فكان الأحرى والأجدر بكم الاستفادة من دروس التاريخ القديم والحديث. وكان حقيقيا بكم أن تتجنبوا سياسة المعايير المزدوجة - فالحصار المستمر على شعب العراق منذ أكثر من تسع سنوات حصار ظالم ومناقض لما تزعمونه من دفاعكم لحقوق الإنسان. كذلك الغارات الجوية على شعب العراق همجية وعودة إلى سياسة الغاب والناب. وانحيازكم الكامل لإسرائيل ضد شعب فلسطين والشعوب العربية طغيان وفساد وافساد ومحاولاتكم لاسقاط حكومة البشير فى السودان، وذلك بمعوناتكم المادية والعسكرية للمتمردين فى جنوب السودان لاقامة حكومة علمانية فى شمال السودان بديلا للحكومة الشرعية الإسلامية بقيادة عمر البشير، محاولاتكم هذه

تدخل باطل فى شئون دولة مستقلة وضد القانون الدولى الذى تدعون أنكم حماته ومدافعوه.

وإن كان التدخل فى شئون الدول الأخرى سمة مميزة لسياسة حكوماتكم المتعاقبة وممارساتكم الظالمة فى دول أمريكا اللاتينية مثل البرازيل والسلفادور ونيكاراجو وبنما وشيلى خير شاهد وأكبر دليل على السياسة النفعية والمادية. سياسة الغابة التى تبرر كل وسيلة وإن كانت هذه الوسيلة اغتيال الحكام الشرعيين. وتجويع وتشريد الشعوب وقتل الأطفال والنساء.

* * *

يا حكام الولايات المتحدة ويا شعبها، إن منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله الذى نؤمن به ونعتنقه معتزين بهذا الإيمان وتلك العقيدة، هذا المنهج يفرض علينا أن تكن لكل الناس – مهما اختلفتا معهم فى العقيدة أو الجنس أو اللون أو اللغة – الحب والمودة. حتى من يعادينا واجب علينا الا نبغضهم، وألا نبادلهم عدواتهم لنا بعداوة. هكذا علمنا إمام منهج لا إله إلا الله، وهو نبى الإسلام سيدنا محمد ﷺ الذى هاجر إلى الطائف قاطعا الجبال والوديان منتظرا منهم حسن الاستقبال فقط ولكنهم سلطوا عليه الغلمان والعبيد يرمونه بالحجارة، وبعد أن نصر الله تعالى دينه وثبت أركانه حاصر النبى ﷺ الطائف أياما، عندئذ قيل له بعض أصحابه ادع على ثقيف أهل الطائف فأبى عليه الصلاة والسلام ذلك، وإنما رفع يديه إلى السماء قائلا: «اللهم أهد ثقيفا وأت بهم مؤمنين» دعا لهم ولم يدع عليهم بدافع الانتقام الشخصى. وفى إحدى الغزوات والمعركة بين المسلمين والمشركين محتدمة ومشتعلة قيل له يا رسول الله لو لعنتهم أى لعنت أعداءنا المشركين فرفض ذلك وقال :«إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا» هذا هو موقف الإسلام من أعدائه الدعاء لهم بالهداية إلى سواء السبيل لأن منهج لا إله إلا الله دين رحمة ومودة ومحبة لكل البشر مسلمين وغير مسلمين أصدقاء وأعداء.

فالإسلام إذا كان يحتم علينا ألا نكره من يعادينا، ولا نضمر لهم حقدا أو بغضا أو مقتا، فإننا نطالب أنفسنا – كمسلمين – حكاما ومحكومين، شعوبا وقادة سياسيين بأن نجعل منهج لا إله إلا محمد رسول الله دستورا عمليا لحياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، ومنهج لا إله إلا الله محمد رسول الله لن يتحقق فى حياتنا

هذه إلا إذا كان كتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد ﷺ هما اللذين يحكمان حياتنا الدنيا، وعندئذ سنحوز بجدارة شرف «خير أمة أخرجت للناس» وساعتئذ سيقف العالم كله على حقيقة الإسلام وجوهره وعظمته. فكثير من شعوب العالم بمن فيها الشعب الأمريكى يتصورون أن الإسلام دين دموى، وأن المسلمين أمة متوحشة، وهم معذورون فى تصورهم هذا الكاذب والمخطئ، لأن الإعلام الصهيونى الفاسق أوصلهم إلى شعوب مغيبة ومخدرة فى أمام إعلام عربى عاجز ومشلول انحصرت أهدافه واهتماماته فى تقديم مواد هابطة ومسفة تخاطب الغريزة الجنسية فقط وإن احسنت الظن بهذا الإعلام لم يقدم منجزات الإسلام التاريخية والعلمية المجيدة إلا كخدمة ثقافية أو تراث إنسانى، وليس كحافز حيوى كفيل بتحويل واقع سيئ وعفن إلى واقع متحضر قائد لا مقود، متبوع ليس تابعا، مكتف ذاتيا غير متلق معونات وصدقات ليملك قراره السياسى والاقتصادى والعسكرى.

نعم لن نكون جديرين باحترام الآخرين إلا إذا كانت تجمعنا وحدة سياسية واقتصادية وعسكرية ورؤية للحياة والكون متحدة. ينبغى أن تزول الحواجز الدبلوماسية وتلغى تأشيرات الدخول والخروج بين الدول العربية، وقد سبقتنا فى هذا المضمار دول كثيرة. فهناك الاتحاد الأوروبى وحلف الناتو وغيرهما. ونحن نملك جميع الامكانات البشرية والمادية والعلمية والاقتصادية لكيان سياسى قوى وموحد وإسلامنا يأمرنا بالوحدة والاعتصام بحبل الله تعالى. والوحدة إذا كانت قائمة وأساسها منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله، فهى وحدة قوامها القسط والعدل ومحاربة الظلم والطغيان والاعتداء. كما أنها وحدة شديدة الحفاظ على حقوق البشر جميعا. والاعتصام بحبل الله تعالى تأكيد على العمل بمنهج القرآن، لأن حبل الله فى الآية الكريمة: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] هو القرآن كما جاء فى حديث على رضى الله عنه عن النبى ﷺ انه قال «أما أنها ستكون فتنة قيل فما المخرج منها؟ قال «كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم وحكم ما بينكم وهو حبل الله المتين[١]»

فالوحدة الإسلامية قائمة على التعاون على البر والتقوى وليس تعاونا على الأثم والعدوان. وما أكثر التعاون على الأثم والعدوان والبغى والظلم فى عصرنا هذا مهما ألبسه الناعتون والواصفون ثياب الحضارة والتقدم والمدنية، عصر انقلبت فيه الموازين

١- مفاتيح الغيب ص٤.

الإنسانية والخلقية عصر الهه ومعبوده من دون الله تعالى هو القناطر المقنطرة من الذهب والفضة، عصر سادت فيه القيم المادية على القيم المعنوية العظيمة. عصر ساد فيه تحكم السفه على الرشد والمظهر الأجوف على الجوهر الأصيل خسارة كبرى على الإنسانية جميعا وشر مستطير على البشر.

وقد حذر أبو العلاء المعرى رحمه الله المجتمع الإنسانى من انقلاب قيم الحق والعدل، لأن هذا الانقلاب لا يعنى إلا فساد الحياة البشرية وانحطاطها.

يقول المعرى:

إذا وصف الطائىَ (١) بالبخل مادر
وعير قسا (٢) بالفهاهة (٣) باقل (٤)
وقال السهى (٥) للشمس: أنت خفية
وقال الدجى (٦) للصبح: لونك حائل
وطاولت الأرض السماء سفاهة
وفاخرت الشهبَ الحصى والجنادل
فيا موت زر إن الحياة ذميمة
ويا نفس جدى إن دهرك هازل

وقد نختلف مع المعرى، ونتفق معه، نختلف معه فى طلبه الموت أو تمنيه أمام اضطراب القيم والموازين أو تفوق وانتصار حضارة الكم على حساب وضد حضارة القيم الإنسانية العليا ذلك أن اليأس والقنوط والهرب مشاعر سلبية ومرفوضة فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ونتفق معه فى الشطر الأخير من هذا البيت فالجد والمثابرة والمصابرة مع الثقة الكاملة فى رحمة الله تعالى قادرة على كشف الغمة وازهاق الباطل ودمغه، مهما ارتدى سربال القوة الغاشمة واستعان بكل ما يملك لفرض سلطانه وحكمه وجبروته على كل ما ظنه مستضعفا أو معدما أو جاهلا.

* * *

(١) حاتم الطانى المعروف بالجود والكرم.
(٢) قس بن ساعدة خطيب العرب المفوه.
(٣) العى.
(٤) اشتهر بالعى.
(٥) كوكب صغير خفى الضوء.
(٦) سواد الليل وظلمته.

حـــريات الإنســـان
فى الفكر الغربى

(١)

الحرية الفردية التى تسود الحياة الغربية والأمريكية ما هى إلا ثمرة من ثمرات فكر عصر النهضة، هذا العصر الذى أعقب الإصلاح الدينى أو بعبارة أخرى الثورة على سلطة الكنيسة المتمثلة فى رجال الدين، فبعد أن حصر هذا الفكر نفوذ الكنيسة داخل جدرانها، تفرغ لصياغة حياة الإنسان الأوروبى صياغة يحكمها ويصنعها هذا الإنسان وحده، ولا نزعم أن أوروبا بهذا الموقف العدائى ضد رجال الدين قد تخلت عن الدين ونحته عن حياة الفرد الشخصية، ولكن الذى نود أن نقوله إن الدين إن بات له دور فى حياة الإنسان الأوروبى فهو دور ثانوى هامشى، أو نستطيع أن نؤكد أن الناس انشغلوا عن مهمة الدين القيادية بما تمخض عنه الفكر السياسى والاجتماعى للعصر النهضوى وهو الاحتفال بالحياة المادية وانجازات المدنية الغربية، وما توفره من رغد العيش ووسائل اليسر والراحة.

وبوسعنا أن نجمل مفردات الحرية الفردية هذه فيما يلى:

١- **الحرية السياسية**: وتعنى حق المواطنين فى التعبير الحر وذلك بممارسة حقهم فى الترشيح والانتخاب والتصويت فى المجالس النيابية، ولمنصب رئيس الدولة فى النظام الجمهورى، كما أن لهذا المواطن الحق فى نقد سياسة حكومته عن طريق وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية.

٢- **الحرية الفكرية**: حرية الفكر مكفولة فى ظل نظام عصر النهضة. ولو تطرف هذا الفكر وانحرف فأنكر وجود الله، فلا حرج على هذا الفكر وذلك إعمالا بحرية الفكر والرأى والكلام الذى كفله القانون.

٣- **الحرية الاقتصادية**: لصاحب الثروة المالية التصرف فيما يملك وله حق إدارة أعماله من تحديد عدد العاملين فى مصانعه وشركاته، وتحديد رواتبهم، كما أن له حق

الاستغناء، وفصل من يشاء من هؤلاء العاملين دون تدخل – فى كل ما يتخذه من قرارات – من قبل الدولة.

٤– **الحرية الشخصية**: لا قيد على الفرد فى سلوكياته الفردية والشخصية والاجتماعية، ولو كانت هذه السلوكيات مناقضة ومنافية للقيم الخلقية، فلا سلطان للدولة – مثلا – فى انتهاك الأعراض والحرمات. ما دامت هذه الانحرافات الخلقية تتم برضا الطرفين. فرضا الطرفين يسوغ ارتكاب الزنا أو اللواط جهارا نهارا وتحت سمع وبصر الجميع. وتحت مراقبة وحماية الشرطة من كل اعتراض معترض، أو إنكار منكر.

٥– **حرية العقيدة**: لا حرج ولا مساءلة قانونية لكل من ارتد عن دينه، أو معتنق دينا غير دين المجتمع. لأن حرية العقيدة صنو وشقيقة الحرية الشخصية، فالعقيدة الدينية فى منظور فكر الحرية الفردية – مسألة شخصية وملك للفرد، كما يملك متاعه وحاجاته الشخصية لا سلطان لأحد عليه.

* * *

(٢)

حرية الإنسان

فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله

إن حرية الإنسان – فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله – لم تتحقق نتيجة للعوامل الاجتماعية والدينية، والصراعات الدامية، بين رجال الدين المسيحى، ودعاة الإصلاح والنهضة فى أوروبا، كما أسلفنا القول فى ذلك، وإنما حرية الإنسان فى منهج الوحدانية نابعة من جوهر وماهية الإسلام، نابعة من أصلين ثابتين فى عقيدة الإسلام وشريعته، وأول هذين الأصلين هو العبودية لله وحده وثانيهما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وسنرى كيف أن هذين الأصلين يؤكدان حرية الفرد فى المجتمع الإسلامى، دون أن تكون الحرية الإنسانية هبة أو منحة من حاكم، أو مجلس نيابى، أو برلمان، أو ثورة سياسية، أو اجتماعية، أو انقلاب بقيادة العسكر. أو صراعات عرقية.

١ – العبودية

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى معرفًا الحرية، والعبودية بأن الحرية (حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس. قال النبى ﷺ «ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس) «متفق عليه»[١] فمن حرم أو افتقد حرية القلب صار عبداً لغرض من أغراض الدنيا من مال، أو جاه، أو نساء أو غيرها من الشهوات. أو كمال قال ابن تيمية «من استُعبد قلبه، فصار عبد الغير الله فهذا يضره، ولو كان فى الظاهر ملك الناس»[٢].

ويكتمل غنى النفس والقلب بالافتقار إلى الله عز وجل وحده. والاستغناء عن كل ما سواه سبحانه، ولذلك كان من أدعية اعلم الناس – ﷺ – بربه سبحانه وتعالى: ﴿ **اللهم اغننى بالافتقار إليك ولا تفقرنى بالاستغناء عنك** ﴾.

---

(١) العبودية لابن تيمية.

(٢) المصدر السابق.

وعباد الله تعالى – بحرية قلوبهم، والافتقار إلى خالقهم عز وجل كانوا أغنياء وأحراراً، إذا علموا حقًا سارعوا بإعلانه والبوح به جهاراً نهاراً، لا يخشون فى الله لومة لائم، معرضين عن أى مطمع دنيوى، أو رغبة فى حيازة مال، أو خوف من فقده، بل وأكثر من ذلك، فقد يضحون بحياتهم فى سبيل إيمانهم بالله تعالى إلهًا وربًا واحداً لا شريك له فى ملكه.

وسحرة فرعون نموذج حى وفريد للذين تحررت قلوبهم من عبودية ما سوى الله عز وجل فقد آثروا عبادة الله القوى العزيز على عبودية كل ما سواه فتحرروا واعتقوا أنفسهم من زخرف الدنيا الكاذب والمتمثل فى المقابل المادى والزلفى والحظوة الفرعونية ذات السلطان والنفوذ. وقد اقتضت الحرية التى منحتها أياهم عبودية الأحد الصمد ألا يبالوا بتهديد فرعون أو وعيده. بتقطيعه أيديهم وأرجلهم من خلاف ثم صلبهم فى جذوع النخل. وكان ردهم حيال هذا التهديد الفرعونى ردا قويًا نابعًا من قوة إيمانهم بالله العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون. كان رد هؤلاء الفئة المؤمنة ﴿**قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ**﴾ [الأعراف: ١٢٥-١٢٦].

ولنقرأ الآيات البينات من الكتاب الحكيم التى تصور بالحق معركة الإيمان وأنصاره ضد الكفر وعملائه.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ**

الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)﴾ [الأعراف: ١٠٤ - ١٢٦].

حقًا إن الحياة ينبغى أن تضحى بها فى سبيل الإيمان بالله ربا والهًا واحداً، وصدق الله العظيم الذى يقول: **﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾** [التوبة: ١١١].

إن فرعون بكل طغيانه وجبروته، وهامان بكل قوة جنوده لم يستطيعوا أن يملوا إرادتهم على فئة قوية بإيمانها بالله تعالى، وإن كانت ضعيفة لا تملك سلاحًا ولا جنوداً، فقد أعلنوا إيمانهم برب بموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام على ملأ فرعون وأعوانه غير هيابين ولا وجلين متضرعين سائلين الله تعالى وحده أن يرزقهم الصبر والوفاة مسلمين -بعد أن كانوا قبل إيمانهم - طامعين أجرًا من فرعون.

ولا عجب فى ذلك فقد صاروا عباداً لله تعالى أحرارا أعزاء كرماء أغنياء النفس. بعد أن كانوا عبيداً لبشر لا يملك نفعًا ولا ضرًا، ولا حياة ولا نشوراً.

ولقد سلكت مسلك هؤلاء المؤمنين امرأة فرعون آسية بنت مزاحم، التى استغنت بالإيمان بربها - عن المال والجاه والخدم والحشم. وكل ما فى حياة القصور من رفاهية العيش ورغد الحياة، وطيب المأكل، وحسن الملبس، رمت بكل ذلك عرض الحائط، مؤثرة عليه الإيمان بالله وحده والموت فى سبيله ذلكم موقفان إيجابيان، تجلى فيهما العبودية الحقة للمعبود بحق جل وعلا، موقف سحرة فرعون بعد أن شرح الله تعالى صدورهم للإيمان وموقف آسية ابنة مزاحم. كما تجلت التضحية بالحياة ونعيمها فى سبيل الله تعالى.

وهناك أمثلة سلبية للذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة، آثروا العبودية لغير الله تعالى. والذل والهوان والخضوع والخنوع، على العزة والحرية والكرامة والشرف فى الحياة العاجلة والآجلة. وأمثال هؤلاء النماذج المخزية والسيئة. تتكرر فى كل العصور

والأمكنة فمن هؤلاء الذين استعبدتهم شهواتهم الرخيصة وأهواؤهم ونزواتهم وارتضى لنفسه أن يكون عبداً قِنًا، وإن كان ملك الناس، كما قال ابن تيمية رضى الله عنه، إنه أمير من أمراء نجران إبان العصر النبوى هو: «حارثة ابن علقمة النصرانى» الذى أرغمته عبوديته لغير الله عز وجل أن يرفض الإيمان برسالة محمد -ﷺ- رغم علمه بصدق هذه الرسالة، كما قال هو لأخيه «إنى لأعلم أنه «محمداً» رسول الله ﷺ حقًا. ولكن إن أظهرت ذلك أخذ ملوك الروم منى ما أعطونى من المال والجاه»(١).

وقد قيل إن هرقل ملك الروم كان السبب الأساسى فى عدم اسلامه - بعد أن تبين له صدق دعوة الرسول - ﷺ - وأنه خاتم الأنبياء المرسلين وذلك من خلال مناقشته إلى سفيان من حرب فى الحديث الصحيح - هو الخوف أيضًا من زوال ملكه وبطش الروم به.

لقد صدق الإمام ابن تيمية - رضى الله تعالى - الحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب. ومن عبد غير الله فهو عبد ذليل رقيق لهذا الغير، وإن كان فى الظاهر ملِك الناس وأميرهم وسيدهم.

وإن سحرة فرعون - بعد إيمانهم برسالة موسى عليه الصلاة والسلام ونبوته ورفضهم للمنح والعطايا والهبات الوفيرة بالإضافة إلى الزلفى الفرعونية وإن آسية بنت مزاحم لما أعرضت عن نعيم القصر وبحبوحة الحياة فيه، مؤثرة عليه بيتًا فى جنة ربها. كانوا - جميعا - من الذين رزقهم الله عز وجل حرية القلب التى تعنى عبودية ذى الجلال والإكرام فصاروا ملوك الناس وسادتهم، وإن حسبهم - ذوو القلوب التى لا تفقه، والأعين التى لا تبصر، والآذان التى لا تسمع - أراذل الناس، مما سبق ذكره تبين لنا أن حرية المسلم نابعة من عبوديته لله عز وجل، فهذه العبودية المكرمة تحقق حرية القلب، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى. وفى الوقت نفسه، تمنع وتحرم عبودية ماسوى الله عز وجل، سواء كان هذا «السوى» بشراً نبيًا أو رسولاً أو ملكًا أو رئيسًا، أو صنمًا أو وثنًا، أو حجارة. فالعبودية ينبغى أن تكون لله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير. وتأكيداً لهذا المبدأ البدهى المُسلم به فى منهج لا إله إلا الله محمداً رسول الله يقول المعبود بحق فى كتابه

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازى جـ ٤.

العزيز: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩ - ٨٠].

ذكر الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره المسمى «مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير» فى سبب نزول هذه الآية وجوهًا نذكر منها وجهين أولهما: «قيل إن أبا رافع القرظى من اليهود، ورئيس وفد نجران من النصارى قالا لرسول الله ﷺ: أتريد أن نعبدك ونتخذك ربًا؟ فقال ﷺ: معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بغير عبادة الله فما بذلك بعثنى ولا بذلك أمرنى» فنزلت هذه الآية، ثانيهما «قال رجل يا رسول الله نسلم عليك، كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ فقال ﷺ: «لا ينبغى لأحد أن يسجد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم، واعرفوا الحق له»[1].

* * *

إن الدول الغربية وأمريكا دائمة التباهى والتفاخر بممارستها أو تمتع شعوبها بنعيم الحريات المطلق، وذلك منذ عصر النهضة بعد فصل الدين عن الحياة الأوروبية أو الأمريكية - كما أفضنا القول فى ذلك - وهذا صحيح لا شك فيه - والدليل على ذلك أن القوانين عندهم لا تميز بين الحاكم والمحكوم، أو الرئيس والمرءوس. فالكل أمام هذه القوانين سواء، فمن الجائز أن يمثُل أمام المحكمة رئيس الدولة وقد تدينه المحكمة إذا كان مذنبًا، ويجوز عزله وإقالته إذا كان جرمه يوجب ذلك.

إنهم يزعمون أنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من سيادة الديمقراطية وشيوع وانتشار مبادئ الحرية، والمساواة والعدالة، إلا بعد أن تخلصوا من سلطان الكنيسة، الذى تمثل فى رجال الدين. وهذا حق أيضًا لامراء فيه - فمظاهر المساواة والعدالة التى تحياها شعوبهم مشاهدة وملموسة. فوسائل إعلامهم المقروءة والمسموعة، والمرئية، لا تكف عن توجيه النقد والاعتراض على سياسة دولهم. ومجالسهم النيابية دائمة المساءلة واستجواب رؤساء دولهم أو رؤساء المجالس الوزارية.

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٤.

إذا انتقلنا إلى العالم العربى الإسلامى نجد البون شاسعًا بيننا وبين أولئك الذين يجنون بعض ثمار حضارة ومنهج لا إله إلا الله محمد رسول الله دون أن يؤمنوا أو يعتنقوا دين الوحدانية.

هل هذه اشكالية أو معضلة تحار الألباب فى فهمها أو حل طلاسمها وألغازها؟.

كلا! إنها ليست طلاسم أو ألغازاً وأحاجى إن المسألة سهلة يسيرة لا تحتاج إعمال عقل، أو ايقاد زناد فكر.

إن العالم الإسلامى نبذ بواعث وأسباب أرقى حضارة إنسانية وأعظم مدنية وراء ظهره، وذهب يبحث ويلتمس عوامل التقدم والنهضة والنمو المادية من مصادر وموارد غريبة وبعيدة عن منابع حضارته الأصيلة القريبة والماثلة بين يديه. كالعيس يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول.

نعم حضارة لا إله إلا الله محمداً رسول الله. تغنينا، وتكفينا عن جميع الحلول المستوردة لجميع مشكلاتنا وقضايانا السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية والعسكرية. فإذا كانوا يتغنون بسيادة الديمقراطية السياسية والاقتصادية، والاجتماعية، فان ديننا الحنيف قد كفل للإنسان حياة تظللها الحرية السياسية، والفكرية، والاقتصادية، وحرية العقيدة، هذه الحريات جميعها. كانت مكفولة – فى الدولة الإسلامية منذ أربعة عشر قرنًا، فليست الدول الإسلامية المعاصرة حجة على الإسلام، وإنما الإسلام حجة على حكام هذه الدول وذلك بعد هجرهم وانصرافهم عن منهج القرآن وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام.

والآن أن لنا أن نبرهن، ونستشهد بالمواقف التاريخية الموثقة على سيادة حرية القول والتعبير، ونقد الحاكم المسلم، وتوجيهه ونصحه، فنقد الحاكم، أو المسئول المتولى شئون المسلمين ليس هدفه مجرد النقد، أو الاعتراض، أو التجريح، كلا إن محاسبة خليفة المسلمين طاعة واستجابة لرسول الإسلام محمد ﷺ الذى أمر فى حديث صحيح الحاكم والمحكوم بإرشاد أحدهما الآخر كما سيأتى – إن شاء الله – وفى الحديث الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أيضًا فالمسلم مطالب – إسلاميًا – بتصويب خطأ حكامه وإرشادهم إلى جادة الصواب وهذا ما أكده أول خليفة للمسلمين فى

أول خطاب له قائلاً «إن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى» كما أن الحاكم تقع عليه مسئولية إرشاد رعيته وإقالة عثراتهم.

الحرية السياسية:

والآن إليك بعض نماذج الحريات ومظاهر مساءلة كل من أنيط به أمور المسلمين، بدءاً من رحمة الله تعالى للعالمين، المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، الذى لا ينطق عن الهوى سيدنا محمد ﷺ الذى كان نموذجًا عظيمًا للحاكم العدل الرءوف الرحيم، الحليم لجهل الجاهلين، الذى يدفع السيئة بالحسنة، القدوة الحسنة، لجميع الحكام فى كل زمن ومكان.

إليك - أيها القارئ العزيز - هذه الصورة النابضة بالحياة، صورة من الحوار الإسلامى - ولا أقول الديمقراطى - بين خاتم الأنبياء والمرسلين وبين هند بنت عتبة زوج أبى سفيان بن حرب؛ هذا الحوار الذى تجلى فيه حلم الحاكم العدل، وأريحيته، وسعة صدره، وحسن خلقه، وصبره الجميل - وهو - عليه الصلاة والسلام- فى قمة انتصاراته لقد تحلى ﷺ بهذه الخصال الخلقية العظيمة أمام امرأة ناصبت الإسلام ونبى الإسلام العداء والبغضاء والحقد والشنآن - قبل إسلامها - فلم تتورع أن تبقر بطن أحب الناس إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وعمه وأخاه فى الرضاعة أفضل الشهداء فى غزوة أحد (فأخرجت كبده فجعلت تلوكها فلم تسغها فلفظتها) فلما شهده النبى ﷺ اشتد وجده عليه وقال: لئن ظفرت لأمثلن بسبعين منهم.

فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٦، ١٢٧]، وروى أبو هريرة قال: وقف رسول الله ﷺ على حمزة، وقد مثل به فلم ير منظرا كان أوجع لقلبه منه فقال: رحمك الله أى عم، فلقد كنت وصولا للرحم فعولا للخيرات(١)».

هذه هند بنت عتبة ذات الخلفية السيئة، والمشاعر السلبية من الإسلام عامة، ومن النبى ﷺ خاصة. هند هذه تناقش محمد بن عبد الله مناقشة فيها الكثير من رواسب الماضى، مناقشة فيها حدة الخلق، وغلظة الطبع. ولكن الرءوف الرحيم بالمؤمنين

(١) أسد الغابة ج٢.

يعاملها بما بعث به. لقد بعث ليتمم مكارم الأخلاق. وهو عليه الصلاة والسلام الذى أنزل عليه قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ [المائدة: ٨] وهو ﷺ القائل: «الإسلام يجب ما قبله».

وإليك - عزيزى القارئ - مبايعة الرسول صلوات الله وسلامه عليه للنساء وما دار بينه عليه الصلاة والسلام وبين هند بنت عتبة:

«روى أن النبى ﷺ لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال أخذ فى بيعة النساء، وهو على الصفا، وعمر أسفل منه يبايع النساء بأمر رسول الله ﷺ ويبلغهن عنه. وهند بنت عتبة إمرأة إبى سفيان متقنعة متنكرة خوفا من رسول الله ﷺ أن يعرفها، فقال عليه الصلاة والسلام «أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئا. فرفعت هند رأسها، وقالت: **والله لقد عبدنا الأصنام وإنك لتأخذ علينا أمرا ما رأيناك أخذته على الرجال، تبايع الرجال على الإسلام والجهاد فقط.**

فقال عليه الصلاة والسلام: ولا تسرقن، فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح وإنى أصبت من ماله هناة، فما أدرى؟ أن حل لى أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شىء فيما مضى. وفيما غبر فهو لك حلال فضحك رسول الله ﷺ، وعرفها فقال لها: وإنك لهند بنت عتبة.

قالت: نعم فاعف عما سلف يا نبى الله عفا الله عنك. فقال: ولا تزنين، فقالت أوتزنى الحرة؟

فقال: ولا تقتلن أولادكن، فقالت: **ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا فأنتم وهم أعلم،** وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قد قتل يوم بدر(١)

إذا صرفنا النظر - مؤقتا - عن كون محمد بن عبد الله رسولا ونبيا يوحى إليه، لا ينطق عن الهوى - المبعوث رحمة للعالمين بشيرا ونذيرا. ليخرج الناس أجمعين من الظلمات إلى النور. ونظرنا إليه كرئيس دولة وحسب، أو لا يكون نموذجا ومثلا أعلى وقدوة طيبة للزعماء فى جميع الأزمنة والأمكنة الذين ينبغى عليهم أن يطلقوا الحريات السياسية، والاجتماعية، بين من يسوسونهم حتى ولو كانت حرية تقضى بنقد سياسة

---

(١) بتصرف من التفسير الكبير للفخر الرازى ص١٢.

الحاكم شخصيا. وما على هذا الحاكم إلا أن يقابل هذا النقد الموجه إليه باعتراف حق الإنسان بمراجعة حاكمه أو رئيسه، وإن كانت هذه المراجعة حادة أو شديدة اللهجة كما فعل أستاذ البشرية ومعلم العالمين، والحكام، والرؤساء – خاصة – فن معاملة محكومهم هذه المعاملة القائمة على معرفة كل حاكم الحدود والمعالم التى ينبغى أن ينتهى ويقف عندها، فلا يتجاوزه، فإن تجاوز هذه الحدود وتلك المعالم دخل فى دائرة الزمرة الفرعونية والقارونية، والفرعونية، والقارونية، رذيلتان يرفضهما الإسلام رفضا قاطعا لأن احداهما مثال للاستبداد والطغيان السياسى، والأخرى مثال لجبروت المال وبغيه وظلمه.

والحاكم بشر يجوز عليه ما يجوز على البشر، وينبغى أن يكون عليه واجبات وتبعات، قبل أن يكون له حقوق وامتيازات، فمن الواجب عليه ألا تأخذه العزة بالإثم ويستكبر على الرعية والمحكومين، وهذا هو النبى محمد ﷺ لا يستنكف من مراجعة امرأة فى بيعة النساء، فعندما بايعهن «على ألا يشركن بالله شيئا، رفعت هند بنت عتبة رأسها وقالت :«**والله قد عبدنا الأصنام، وإنك لتأخذ علينا «أى النساء» أمرا ما رأيناك أخذته على الرجال**» وعندها قال عليه الصلاة والسلام لهن :«ولا تقتلن أولادكن قالت هند : **ربيناهم صغارا، وقتلتهم كبارا**» تشير هند بذلك إلى القتلى من المشركين فى غزوة بدر وكان ابنها حنظلة من بين هؤلاء القتلى. وانظر إلى قولها للرسول «قتلتهم» والرسول ﷺ، لم يقتل، وإنما كانت هذه الغزوة دفاعا، واستردادا لما سلبه المشركون من حقوق المسلمين – والنبى ﷺ – على الرغم من ذلك لم يؤنب هندا، ولم يعترض عليها أحد من صحابة الرسول لا على توجيهها أسئلة لم تخل من نقدجاف، ولا على مقاطعتها المبايعة النبوية.

* * *

ولما كان الاقتداء بالرسول ﷺ فريضة إسلامية. فقد سار على هديه ﷺ، وسلك طريقه ومنهجه القويم فى العبادات سواء كانت هذه العبادات شعائر، أو أسلوبا وسياسة وحضارة مثل العدالة، والمساواة، وإطلاق حرية الكلمة، والنقد النزيه نعم سار على منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله الخلفاء الراشدون المهديون – فأبو بكر الصديق الخليفة الأول – بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى. يخاطب المسلمين قائلا :«أيها الناس قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن

أسأت فقومونى، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى، حتى آخذ له حقه والقوى عندى ضعيف، حتى آخذ منه الحق إن شاء الله لا يدع أحد منكم الجهاد، فإنه لا يدعه قوم، إلا ضربهم الله بالذل، أطيعونى، ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله»(١).

فى هذه الخطبة التى ألقاها أول خليفة يتولى أمر المسلمين، بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، حدد أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، قيما ومبادئ إسلامية، توافرها ووجودها، فيمن يتصدى لشأن من شئون المسلمين أكد وحتمى. وأول هذه المبادئ، قيمة التواضع، فالتواضع - فى غير ذلة - خلق إسلامى عظيم، ينبغى أن يتحلى به كل مسلم، حاكما كان أو محكوما، ولكنه فى الحاكم ربما كان عاملا مساعدا فى حسن سياسته وعدل إدارته لدولاب الحكم.

وأبو بكر الصديق - رضى الله تعالى عنه - حين يقول «إنى وليت عليكم، ولست بخيركم» تواضع لله عز وجل الذى رفعه، وكرمه، أليس هو ثانى اثنين فى الغار، أوليس هو من أنعم عليه رسول الإنسانية بلقب الصديق وهو عليه الصلاة والسلام الذى قال فى شأنه :«لو وضع إيمان أبى بكر فى كفة، وإيمان الأمة فى كفة لرجحت كفة أبى بكر».

إن أبا بكر الخليفة الأول للمسلمين حين يعلن تواضعه هذا وقد أثبتت خلافته، وسياسته، بالمواقف العملية عدم ترفعه على أحد مهما يكن وضعه ومنزلته الاجتماعية.

إن أبا بكر عندما يعلن على الملأ أنه ليس أفضل أو خيرا من أحد، كأنى به يوجه رسالة إلى كل من يلى أمرا من أمور المسلمين ألا يطغى أو يتكبر، وألا تأخذه العزة بالإثم، فيعثو فى الأرض فسادا باستعلائه على محكومين، كما صنع من قبل فرعون هامان وقارون، لأن الجبروت والغطرسة والطغيان إذا تمكنت من الحكام كانت مدعاة ومؤدية إلى الألوهية والربوبية من دون الله تعالى.

* * *

(١) الكامل لابن الأثير جـ٢.

ثانى المبادئ والدروس المستفادة من خطبة الخليفة الأول لخير أمة أخرجت للناس، الاعتراف والإقرار بحق هذه الأمة فى توجيه حاكمها والمسئول الأول بقيادة سياستها العامة. ونقول «توجيه» بمعنى تقويم الحاكم إذا أخطأ، وإعانته ومؤزارته إذا أصاب كما قال رضى الله عنه :«فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى».

فإذا كان دعاة «الديمقراطية الغربية» وعشاقها يتيهون عجبا بالحريات السياسية والاجتماعية، وأن وسائل إعلامهم المتباينة – فى ظلال الحرية – التى يتمتعون بها تستطيع أن توجه سهام النقد والتوبيخ والتجريح لحكامهم إذا اخطأوا وخرجوا على دساتيرهم وقوانينهم. فإننا نقول لهم أن الشريعة الإسلامية – ومنذ أربعة عشر قرنا – أوجبت على الأمة الإسلامية تقويم الحاكم أو خليفة المسلمين. وهذا خليفة المسلمين يعلن ذلك دون مواربة أو مداراة.

* * *

ثالث المبادئ الحضارية الذى تضمنته خطبة أبى بكر الصديق هو أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق. ولو كان هذا المخلوق الخليفة الأول للمسلمين أبا بكر الصديق يقول رضى الله تعالى «أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لى عليكم».

نعم إن طاعة الحاكم مقيدة، وليست مطلقة، إن مسئولية الحاكم منحصرة فى تنفيذ السياسة المستمدة من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله تعالى عليه الصلاة والسلام، فإذا انحرف حاكم عن هذه السياسة أو عدل عنها إلى سياسة أخرى تناقض ما جاء فى الكتاب والسنة، فلا طاعة لهذا الحاكم على الأمة، ذلك أن الكتاب والسنة دستور الدولة الإسلامية، والخروج عن دستور الدولة جريمة ومخالفة تسقط طاعة الولى.

ومن جهة أخرى، فإن الطاعة المطلقة للحاكم، استبداد فى الأرض وطغيان وفساد، وافساد، ومهمة الحاكم غير ذلك إن مهمته نشر مبادئ العدل، والمساواة، وإشاعة العمران وبناء الحضارة القائمة على منهج التوحيد. فالإسلام – كما أكدنا فى موضع

آخر – دين يحث على حب الحياة، وعلى توفير عيش كريم للناس جميعا. وعلى أن يظلل المجتمع البشرى رايات العدل والمودة كما يدعو أيضا إلى التزود بثمرات جميع العلوم والمعارف، والثقافات، ولن يتحقق كل ذلك إلا فى ظل دولة لا طاعة فيها لمخلوق فى معصية الله تعالى.

***

ثم نستكمل الحديث عن حرية التعبير فى العهد العمرى. عمر بن الخطاب الخليفة الثانى بعد خلافة أبى بكر الصديق. فكان عمر رضى الله عنه خير خلف لخير سلف. فخليفة المسلمين الأول كان كما أكد فى خطبته الأولى طالبامن المسلمين تقويمه إذا أخطأ، وإعانته إذا أصاب، فها هو عمر بن الخطاب يقر بحرية المسلمين فى تقويمه، ومساءلته، واستجوابه، وإليك واقعتين تشهدان بذلك.

الواقعة الأولى :«عن سالم بن عبد الله قال: نظر عمر رضوان الله عنه إلى رجل أذنب ذنبا فتناوله بالدرة. فقال الرجل: يا عمر إن كنت أحسنت فقد ظلمتنى، وإن كنت أسأت فما علمتنى. فقال: صدقت فاستغفر الله لى، فاقتص من عمر. فقال الرجل: أهبها لله. غفر الله لى ولك»(١)

الواقعة الثانية :«عن العتبى قال: بُعث إلى عمر بحلل فقسمها، فأصاب كل رجل منا ثوبا، ثم صعد المنبر، وعليه حلة، والحلة ثوبان، فقال: أيها الناس ألا تسمعون؟ فقال سلمان رضى الله عنه، لا نسمع. فقال عمر: ولم يا أبا عبد الله. قال: إنك قسمت علينا ثوبا، ثوبا وعليك حلة. فقال: لا تعجل يا أبا عبد الله. ثم نادى على عبد الله. فلم يجبه أحد فقال يا عبد الله بن عمر. فقال: لبيك يا أمير المؤمنين قال: الثوب الذى اتزرت فيه هو ثوبك. قال: اللهم نعم. فقال سلمان: الآن فقل نسمع(٢)»

والواقعتان التاريخيتان فى غنى عن أى تعليق أو إضافة، ولكنهما – أى هاتين الواقعتين – إن دلتا على شىء فإنما تدلان وتبرهنان على أن أمة الإسلام هى خير الأمم،

---

(١) سيرة ومناقت عمر بن الخطاب لابن الجوزى.

(٢) المصدر – السابق.

كما وصفت بذلك من قبل الحق تبارك وتعالى ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله..** ﴾

وهى – أى هذه الأمة – خير أمة أيضا لأنها أخرجت حاكما مثل عمر بن الخطاب يخاطبه أحد المسلمين باسمه فقط «يا عمر» مجردا من لقب أو كنية أو بصاحب الإمارة أو صاحب السعادة، أو القائد الملهم، أو الزعيم المفدى ولا يخاطب هذا الخليفة أحدا من المسلمين الذى يحدثه معنفا إلا بلقيه الحبيب إلى قلبه «يا أبا عبد الله».

* * *

(٢)

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب بالكتاب والسنة والاجماع أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٤] ويقول عز وجل فى معرض الثناء على الأمة الإسلامية ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ..** ﴾ [آل عمران: ١١٠] ويقول تباركت اسماؤه ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [النحل: ٩٠].

وأما السنة فقوله ﷺ: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه. فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

ولقد أجمعت الأمة الإسلامية على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

والمعروف هل كل ما أمر به الشرع الحكيم وحث عليه سواء فيما يتعلق بعقيدة التوحيد، أو بشريعته ومعاملاته، والمنكر هو كل ما أمر الشارع بتركه واجتنابه.

وفى بداية حديثنا عن الحرية فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله قلنا إن الحرية فى الإسلام مصدرها عبودية القلب لله تعالى. فالعبودية لله عز وجل حرية حقيقية للمسلم وعتق من جميع الآصار والأغلال والقيود المادية، والمعنوية.

ونريد أن نؤكد هنا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الأصول الثابتة، والمقومات القوية مثل عبودية الله عز وجل فى صنع مجتمع يتمتع أفراده بحرية القول والتعبير، والفكر والذى يعنينا - هنا - وفى بحث الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر العلاقة أو السياسة بين الحاكم والمحكوم فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله. فلقد حرص هذا المنهج الإلهى على أن تقوم هذه العلاقة على أساس من المودة والإرشاد، أو بتعبير رسول الله ﷺ - الذى أوتى جوامع الكلم - النصيحة فى الحديث الذى رواه مسلم عن ابن أوس الدارى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال :«الدين النصيحة (ثلاثا) قلنا لمن يا رسول الله قال لله «عز وجل» ولكتابه ولرسوله ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم» وكان التعبير بالنصيحة بمعنى الاخلاص أدق لأن «النصح فى اللغة الخلوص، يقال نصحت العسل إذا أخلصته من الشمع(١)»

«والنصيحة لله سبحانه هى صحة الاعتقاد فى وحدانيته وإخلاص النية فى عبادته والنصيحة لكتابه الإيمان به العمل بما فيه. والنصيحة لرسوله التصديق بنبوته وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه. والنصيحة لعامة المسلمين ارشادهم إلى مصالحهم(٢)»، أما النصح لأئمة المسلمين فهو تبادل النصح والارشاد بين الأئمة وعامة المسلمين. ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال «إن الله يرضى لكم ثلاثا، يرضى لكم أن تعبدوه لا تشركوا به شيئا. وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم» و«فى المسند وغيره أن النبى ﷺ قال فى خطبته بالخيف من منى « ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله. ومناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعة المسلمين»(٣) فالمناصحة بين الحاكم والمحكوم مطلوبة، بتقويم أحدهما الآخر فى حالة الخطأ، وبالإعانة فى حالة الصواب.

فالأمة الإسلامية - حكاما ومحكومين - مأمورة من قبل الله تعالى ومن رسولها الكريم ﷺ بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصيحة وهذه قيم إسلامية بناءة كفيلة ببناء نظام سياسى قوامه العدالة، عدالة النظام، وعدالة رئيس النظام فلا استبداد

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ومعنى يغل بالضم من الاغلال وهو الخيانة أى لا تدخله خيانة.

ولا حاكم معبود من دون الله. وكيف يكون ذلك. والأمة تحاكم وتستجوب حاكمها فى الصغيرة، قبل الكبيرة. أمة لا تخشى فى الله لومة لائم وهذه الأمة إذا قومت حاكمها، إنما تقومه، وتوجهه ابتغاء مرضاة الله تعالى. واتباعا لسنة نبيها محمد ﷺ القائل :«لا ينبغى لأمرئ شهد مقاما فيه حق إلا تكلم به فإنه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقا هوله» وقوله ﷺ :«لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه».

فالرسول ﷺ فى هذين الحديثين يؤكد حرية قول الحق دون خوف أو وجل من ذى سلطان أو سطوة أو قوة مادية، فالمؤمن الحق الذى أوتى عبودية القلب للمعبود بحق سبحانه، لا يخشى فى الله تعالى أحدا ولم يخاف؟ إنه إن عاش. عاش عزيزا بالله العزيز الحكيم، وإن اعتدى على حياته – ظلما وعدوانا – مات شهيدا، كما أخبرنا بذلك الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ :«أفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قال كلمة حق أمام سلطان جائر فقتله». وهذا ليس كلاما أجوف لا رصيد له من واقع الحياة العملية، كلا! إن تاريخ الجهاد بكلمة الحق فى سبيل الله عز وجل حافل ومزدهر بالمواقف البطولية للمؤمنين الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا عليه من هذه المواقف الخالدة – غير التى سبق ذكرها – موقف سعيد بن المسيب رضى الله تعالى عنه حينما أرسل الخليفة الأموى عبد الملك من مروان إلى عامله بالمدينة ليأخذ العهد على الناس بأن يبايعوا من بعده بالخلافة ولديه الوليد وسليمان فامتنع من ذلك سعيد بن المسيب، وخوطب كثيرا ليعدل عن امتناعه، فلم يقبل وصمم عليه حتى ضرب فى ذلك ستين سوطا وما بايع(١)»

كما «دعى سعيد بن المسيب إلى ثلاثين ألفا ليأخذ – هدية من الوالى – فقال «لا حاجة لى فيها، ولا فى بنى مروان حتى ألقى الله فيحكم بينى وبينهم(٢)»

وقد قال عمر بن هبيرة – وكان واليا ليزيد بن عبد الملك الخليفة الأموى – للحسن البصرى وابن سيرين والشعبى – قال لهم إن أمير المؤمنين يكتب إلىّ فى الأمر إن فعلته خفت على دينى، وإن لم افعله خفت على نفسى، فقال له الشعبى وابن سيرين قولا لينا رققا فيه. وقال له الحسن البصرى: يا ابن هبيرة خف الله فى يزيد ولا تخف

(١) فى النظام السياسى للدولة الإسلامية د. سليم العوا/ العبر فى خبر من عبر للذهبى.
(٢) وفيات الأعيان جـ٢.

يزيد فى الله. يا ابن هبيرة إن الله يمنعك من يزيد، ويزيد لا يمنعك من الله – يا ابن هبيرة إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية اللة. فما وافق كتاب الله من كتب يزيد فانفذه، وما خالفه فلا تنفذه، فإن الله أولى بك من يزيد، وكتاب الله أولى بك من كتابه. فقال ابن هبيرة: هذا الشيخ صدقنى ورب الكعبة(١).

وهذا أبو جعفر المنصور ثانى خلفاء بنى العباس يقول لسفيان الثورى عظنى أبا عبد الله، فيجيبه سفيان: وما عملت يا أمير المؤمنين فيما علمت حتى أعظك فيما جهلت، فيقول المنصور: ما يمنعك أن تأتينا فيقول سفيان: قال الله تعالى:«ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار»(٢).

«وشرط أهل البصرة للمنصور ألا يخرجوا عليه فإن هم فعلوا حلت له دماؤهم. ثم نقضوا شرطهم، وخرجوا عليه، وأراد «المنصور» أن ينفذ ما شرطوا له.. فسأل أبا حنيفة النعمان فى ذلك فقال له :«إنهم شرطوا ما لا يملكونه وشرطت عليهم ما ليس لك، فإن أخذتهم، أخذت بما لا يحل»

«ولقى هارون الرشيد الفضيل بن عياض – وكان من العباد الزاهدين – فسلم عليه وقال له «يا لها من كف، ما ألينها إن نجت غدا من عذاب الله عز وجل» ووعظه وعظا شديدا فكان من قوله له «إياك أن تصبح أو تمسى وفى قلبك غش لأحد من رعيتك فإن رسول الله ﷺ قال: من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة (٣).

* * *

هذا التاريخ المجيد والجهاد الحق بالكلمة الجريئة فى سبيل الله عز وجل وحده وليس فى سبيل مطامع وأغراض دنيوية، أو إثبات شجاعة شخصية مزيفة كان أخلاق الرجال من المؤمنين الذين طبقوا ومارسوا كتاب الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسنة رسول الإسلام محمد ﷺ، واستخدموا الدنيا فى سبيل دينهم الحنيف فجاءت إليهم صاغرة خاضعة وهؤلاء العظماء فى سجل الجهاد بالكلمة العدل

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة جـ٢.

(٢) العقد الفريد جـ٢ المدخل الشيخ محمد مصطفى شلبى / النظام السياسى د. سليم العوا.

(٣) رجال الفكر والدعوة فى الإسلام لأبى الحسن الندوى.

والحق الذين قدمناهم غيض من فيض الصفحات للمجاهدين الذين صبروا وصابروا ورابطوا مجاهدين بكلمة الحق، ولو كان الثمن حياتهم.

وتاريخ الإمام أحمد بن حنبل وبلاؤه وسجنه فى مسألة خلق القرآن وتعرضه معروف كذلك جهاد الإمام شيخ الإسلام أحمد بن تيمية – رحمه الله – مع حكام عصره غنى عن البيان فما بال علماء اليوم الذين يضحون بكلمة الحق طمعا فى دنيا زائلة وحرصا لمرضاة الحكام الذين فى أيديهم سلطة إقالتهم من مناصبهم وحرمانهم من كل ما يتمتعون به من زخرف الدنيا وزينتها وشهواتها ألم يبلغهم حديث خاتم الأنبياء والمرسلين أن قول الحق لن يقدم أجلا ولن يحرم رزقا، إن من يؤمن بحديث الرسول ﷺ هذا ويطبقه سلوكا ومواقف فى الحياة، فهو من الذين رزقوا عبودية القلب الخالصة للمعبود بحق سبحانه وتعالى وهو فى الوقت نفسه يملك حرية القلب الكاملة، ومن هذا الفريق العلماء الأجلاء الذين أشرنا إليهم سابقا.

أما من حرم عبودية القلب لله عز وجل فهو عبد رقيق لكل ما سوى المعبود بحق عبد لشهوات النفس والمال والسلطة، وللحصول على شهوة من هذه الشهوات لن يستطيع أن يقول كلمة الحق والعدل والإنصاف لأنه مكبل باغلال شهواته ومطامعه الرخيصة فلا بأس ولا حرج –فى نظره– من النفاق والتملق والمداهنة، وأن يظهر الحق فى صورة الباطل والباطل فى صورة الحق وصدق رسول الله ﷺ فى قوله: «إن أخوف ما أخاف على أمتى المنافق عليم اللسان».

* * *

الشـــورى
فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله

الانفراد بالرأى أو الاستبداد به من المسائل المناقضة والمرفوضة فى منهج التوحيد الإلهى، وهو مناقض لأنه إعلان وتعظيم لهذا المنفرد برأيه، وإن كان لبشرما تعظيم، فهذا التعظيم فى الحدود وفى الإطار المسموح به فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله وهو مرفوض لأن هذا الانفراد وذلك الاستبداد ضد طبيعة وقدرات الإنسان المحدودة، فكل من استقل برأيه، سواء كان حاكما، أو محكوماً يجنى على نفسه، وعلى محكوميه إن كان حاكما، بل يورد المحكومين موارد الهلاك والضياع والخسران كما أشرنا إلى ذلك عند الحديث عن الحرية والخالق جل وعلا لما كان رحمن رحيما بعباده، أرسل إليهم الأنبياء والمرسلين لهدايتهم وإرشادهم إلى الطريق المستقيم الكفيل بتحقيق الرخاء والسعادة والعدالة فى الحياة الدنيا، والنعيم المقيم الأبدى فى الحياة الأخرة، هؤلاء النبيون والرسل – عليهم الصلاة والسلام – الذين أوحى إليهم ربهم وأنزل إليهم كتبه برهانا ومعجزة على صدق رسالتهم – كان مما أمرهم وأوصاهم به أن يشاوروا قومهم الذين أرسلوا إليهم فى أمور ومهام وقضايا حياتهم الدنيوية وربما كانت الحكمة من مشاورة الأنبياء للملأ الذين أرسلوا إليهم وآمنوا بهم وبرسالتهم كما قال الإمام الرازى رحمه الله فى حديثه التالى عن موجبات الشورى هى **أولا**: اكتساب مودة ومحبة هؤلاء القوم، لأنه إذا كان الاستبداد بالرأى سببا للكراهية والعداوة، حيث إن المستبد متكبر ومستعل ينظر إلى غيره نظرة كلها دونية واحتقار، إذ كان المستبد هكذا فإن المستشير أهم ما يميز خلقه التواضع والتراحم.

ثانيا: ان رسولا أو نبيا – رغم أنه يوحى إليه ممن بيده ملكون السموات والأرض خالق الحياة والموت الذى يقول للشىء كن فيكون – ومع ذلك لم يدّع أنه فى غنى عن مشاورة البشر ولم يقل ألست موحى إلىّ وأنتم لم ترتقوا ولم تنالوا هذا الشرف الإلهى!.

* * *

وإذا استعرضنا حياة النبى محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين والمبعوث رحمة للعالمين نرى أنه عليه الصلاة والسلام طبق مبدأ الشورى فى الحرب والسلم، وذلك امتثالا وطاعة لأوامر وتوجيهات ربه عز وجل حيث قال - تعالى - موجها خطابه إليه صلوات الله وتسليماته عليه وعلى آله وأصحابه: ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** ﴾ [ال عمران: ١٥٩] وفى معرض المدح والثناء على أصحاب المصطفى عليه الصلاة والسلام قال تعالى: ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الشورى: ٣٨].

ولقد تحدث الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره المعروف بمفاتيح الغيب مفصلا بواعث وأهداف الأمر الإلهى لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام «بمشاورة أصحابه رضوان الله تعالى عليهم فى قوله تعالى «وشاورهم فى الأمر» فيما يلى:

١- إن مشاورة الرسول ﷺ أياهم توجب علو شأنهم ورفعة درجتهم، وذلك يقتضى شدة محبتهم له وخلوصهم فى طاعته، ولو لم يفعل ذلك لكن ذلك إهانة لهم فيحصل سوء الخلق والفظاظة.

٢- إنه ﷺ وإن كان أكمل الناس عقلا إلا أن علوم الخلق متناهية، فلا يبعد أن يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح مالا يخطر بباله، لاسيما فيما يفعل من أمور الدنيا فإنه ﷺ قال «أنتم أعرف بأمور دنياكم وأنا أعرف بأمور دينكم» ولهذا السبب قال ﷺ «ما تشاور قوم قط إلا هدُوا لأرشد أمرهم».

٣- قال الحسن وسفيان بن عيينة إنما أمِر بذلك ليقتدى به غيره فى المشاورة ويصير سنة فى أمته.

٤- أنه ﷺ شاورهم فى واقعة أحد فأشاروا عليه بالخروج وكان ميله ألا يخرج، فلما خرج وقع ما وقع، فلو ترك مشاورتهم بعد ذلك لكان ذلك يدل على أنه بقى فى قلبه منهم بسبب مشاورتهم بقية أثر، فأمره الله تعالى بعد تلك الواقعة بأن يشاورهم ليدل على أنه لم يبق فى قلبه أثر من تلك الواقعة.

٥- وشاورهم فى الأمر، لا لتستفيد منهم رأيا وعلما، لكن لكى تعلم مقادير عقولهم وأفهامهم، ومقادير حبهم لك، وإخلاصهم فى طاعتك فحينئذ يتميز عندك الفاضل من المفضول فيبين لهم على قدر منازلهم.

٦- وشاورهم فى الأمر لا لأنك محتاج إليهم، ولكن لأجل أنك إذا شاورتهم فى الأمر اجتهد كل واحد منهم فى استخراج الوجه الأصلح فى تلك الواقعة، فتصير الأرواح متطابقة متوافقة على تحصيل أصلح الوجوه فيها »(١).

من بواعث الشورى التى ذكرها الإمام الرازى رحمه الله تدرك أهمية وخطورة العمل بمبدأ الشورى وعلى الأمة الإسلامية بدءا من العصر النبوى إلى قيام الساعة أن تقتدى بالرسول عليه الصلاة والسلام لكى تكون الشورى أساسا من أسس الحكم الإسلامى، فما دام الحكم قائما على مشاورة الحاكم للأمة، فلا استبداد سياسى، ولا انفراد بالرأى، ولا فرعونية ولا ديكتاتورية فى اتخاذ القرارات المصيرية وسنتحدث عن أبعاد ونتائج الحكم الفرعونى المعاصرة فى صفحات مقبلة من هذا الكتاب إن شاء الله.

فحينما أمر الله تعالت أسماؤه -الذى إن أمر فلا يأمر إلا بخير، وإن نهى فلا ينهى إلا عن شر- رسوله الكريم محمدا ﷺ بمشاورة المسلمين قائلا « وشاورهم فى الأمر» لم يقيده الأمر بالمشورة فى مسألة أو مشكلة دون غيرها، إنما أطلقها لكى تعم وتشمل جميع القضايا الحياتية عسكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية، وقد طبق عليه الصلاة والسلام الشورى كما جاء فى الأمر الإلهى فكان صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه فى أدق الأمور وجليلها، فقد روى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ.

ونرى أن الشورى إذا كانت فى قضايا السلم والاستقرار واجبة فهى فى المسائل الحربية والعسكرية والاستعداد والاستنفار لملاقاة العدو أكثر حتمية ووجوبا، لعاملين مهمين هما:

أولاً: أن القتال سبب مباشر لإراقة الدماء، وخراب لاقتصاد الأمة ورخائها المادى، صحيح أن الجهاد لإعلاء كلمة لله تعالى من أفضل الأعمال الصالحة ومبتغى وأمنية كل مسلم ولكن لا يشرع إلا لضرورة ملحة تمليها اعتبارات سياسية واقتصادية، وعسكرية وأمنية لذلك كله كانت المشورة للحرب أشد لزوما وأكثر أهمية.

---

(١) بتصرف من مفاتيح الغيب للفخر الرازى جـ٤.

ثانياً: إن الشورى وقاية وصون للأمة من الاندفاع الأعمى تجنبا للخسران والهزيمة وعدم تحقيق أهداف الحرب العسكرية والسياسية والاقتصادية، والعزة والكرامة للمسلمين المجاهدين وعندما ظلم المسلمون فى أنفسهم وأموالهم وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله لم يكن بد من مشروعية القتال ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ**﴾ [الحج: ٣٩] فالمسلمون لم يعتدوا على أحد ولم يؤذوا أحدا، ولكنهم آمنوا بالله تعالى ربا وإلها واحدا لا شريك له، فكان أن قوبلوا من مشركى مكة وصناديدها بكل ألوان التعذيب والأذى والاضطهاد والتجويع والمقاطعة الاقتصادية، فما كان من رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام والفئة المؤمنة إلا أن يهاجروا من دار الكفر والإشراك فرارا منها بدينهم إلى بيئة أخرى جديدة صالحة لاستقبال الوحى الإلهى استقبال الأرض الأرض الظمئى التى تهتز لغيث السماء فتحيا بعد أن كانت ميتة وهامدة، وبعد أن استقر بهم المقام فى المدينة، وبعد أن آخى رسول الدعوة الجديدة محمد ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وتم تأسيس الدولة الإسلامية كان لابد لمقومات هذه الدولة أن تتحقق وهو الدفاع المشروع عما لحق بالمؤمنين من ظلم سافر أثناء وجودهم فى مكة، ولم يكن الدفاع المشروع هذا إلا بملاقاة الأعداء الظالمين، والالتحام معهم عسكريا.

وإنما كان الدفاع مشروعا لسببين أولهما: إن الرسول ﷺ إذن الله تعالى له فى القتال دفاعا ودفعا للظلم الذى حاق بالمسلمين، ثانيا: أن المسلمين كثيراً ما الحوا على النبى عليه الصلاة والسلام أن يصرح لهم بالقتال وكان يقول لهم فى كل مرة لم يأمرنى ربى بالقتال بعد، نخلص من ذلك كله، أن هناك إذنا وأمرا إلهيا بالقتال، وأن المسلمين كانوا يتحرقون شوقا للجهاد طلبا للشهادة فى سبيل إعلاء كلمة الله وجعل كلمة الكفر السفلى. وحتى هذه اللحظة لم تكن الآية الكريمة التى توجب وتأمر بالمشاورة نزل بها الوحى الأمين على قلب الرسول الكريم ﷺ ولكن على الرغم من ذلك كله لم يجد الرسول الذى أدبه ربه وعلمه فأحسن تأديبه وتعليمه، مناصا من مشاورة أصحابه قبل الخروج للالتحام بجيش العدو المشرك الكافر، وكان أصحابه هم المهاجرين والأنصار، لقد عقد سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام مجلس حرب حضاريا لا حجر

فيه لرأى، ولا قيد، ولا تسلط على فكر، أنه مجلس على أعلى مستوى من الرقى الإنسانى، لا خشية ولا خوف ولا رهبة إلا من الله تعالى خالقهم وناصرهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم، وممن يخشون سواه، وهم عباده المفلحون الذين رضى الله عنه ورضوا عنه.

نعم قبل أن يتوجه عليه الصلاة والسلام وأصحابه الأبرار لملاقاة قريش فى غزوة بدر استشار أستاذ البشرية محمد بن عبدالله ﷺ المهاجرين فى هذا الأمر المصيرى الذى يتعلق بحياة الإسلام ومستقبله قبل أن يتعلق بحياة المسلمين « فتكلم المهاجرون وأحسنوا ثم استشارهم ثانيا فتكلموا فأحسنوا ثم استشارهم ثالثا -وكأنه ﷺ كان يريد رأى الأنصار، وفهمت الأنصار ذلك فبادر سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله كأنك تعرّض بنا، وكان ﷺ- إنما يعنيهم لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأحمر والأسود فى ديارهم فلما عزم على الخروج استشارهم ليعلم ما عندهم فقال له سعد لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى عليها أن لا تنصرك إلا فى ديارهم، وإنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاظعن حيث شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك، وقال له المقداد: لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى أذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ولكنا نقاتل عن يمينك ومن شمالك، ومن بين يديك، ومن خلفك، فأشرق وجه رسول الله ﷺ وسر بما سمع من أصحابه، وقال سيروا وأبشروا فإن الله وعدنى أحدى الطائفتين، وإنى قد رأيت مصارع القوم»(١) وتلك كانت استشارة الرسول عليه الصلاة والسلام قبل الإقدام على الجهاد فى سبيل الله، دفاعا عن منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله وعن المؤمنين بهذا المنهج العظيم، أو بعبارة أخرى وبلغة هذا العصر كانت الاستشارة السابقة قبل اتخاذ قرار الحرب، ذلك أن قرار الحرب أو الجهاد، ليس قرارا هينا أو سهلا - كما قلنا ذلك سابقاً - يصبح نافذ المفعول بكلمة من حاكم فرد لا اعتراض لأحد لما يقول، ولا مناقشة فيما يصدر من أحكام، فالإسلام لما كان دينا يحرص على الحياة ويدعو إلى عمارة الكون، ونشر الأمن والطمأنينة والرخاء والعدل والحب فى الحياة الدنيا لم يشرع القتال إلا للدفاع عن النفس والأرض والوطن،

---

(١) زاد المعاد لابن القيم جـ٢.

هذا ولم يكتف رسول الله صلوات الله وسلامه عليه باستشارة أصحابه قبل الحرب، بل كان يستشيرهم فى اختيار المواضع الصالحة أو المواقع الاستراتيجية -بلغة العسكرية الحديثة- للجيش المسلم فلما نزل عليه الصلاة والسلام موضعا معينا أونقطة عسكرية « جاءه الحباب بن المنذر فقال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة فقال النبى ﷺ: بل هو الرأى والحرب والمكيدة فقال يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ثم نقاتل القوم. فنشرب ولا يشربون: فقال رسول الله لقد أشرت بالرأى. فنهض ومن معه من الناس فساروا حتى اذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر القلب فتغورت، وبنى حوضا على القليب الذى نزل عليه. فملأه ماء.

* * *

وقد طبق رسول الله ﷺ مبدأ الشورى تاركا لأصحابه رضوان الله تعالى عليهم الموافقة، أو معارضة قرار مجابهة العدو الموافقة أو المعارضة بالاختيار الحر الذى لا قيد ولا ضغط ولا اكراه فيه، وحينما جاءته الموافقة من المهاجرين والأنصار انشرح صدره عليه الصلاة والسلام، وسر سرورا ثم قال: سيروا وابشروا فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين، وإنى قد رأيت مصارع القوم، وكلماته هذه عليه الصلاة والسلام الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى - جديرة وحقيقة برفع الروح المعنوية لجنود الإسلام، الذين هزموا المشركين فى أول معركة بين قوى الحق وشراذم الباطل. ولا غرابة فى ذلك أو ليست هذه الفئة المؤمنة القليلة العدد نصروا الله تعالى، فلا شك من نصر الله عز وجل أياهم وتأييدهم ومؤازرتهم وهذا معنى قوله سبحانه جلت قدرته ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج: ٤٠] وإن من ينصر الله تعالى فى كل عصر وفى كل زمن ينصره الله ويثبت أقدامه ويلحق الهزيمة والاندحار والخسران بأعداء الإسلام والمسلمين، فعلينا أن ننصر الله عز وجل بتحكيم كتابه وسنة نبيه ﷺ وجعلهما دستورا وممارسة وسلوكا عمليا لحياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأسرية وحينذاك سيكتب لنا النصر المؤزر على أعدائنا أعداء الدين والحياة.

* * *

ثم جاء الخلفاء الراشدون ورضوان الله تعالى عليهم – بعد أن انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى – مهتدين بهديه ومقتدين بسنته عليه الصلاة والسلام. وكيف لا؟ وقد أمروا من قبل الله عز وجل، كما أمر كل من يأتى بعدهم إلى قيام الساعة باتباع السراج المنير، البشير النذير ألم يقل جل وعلا فى كتابه الحكيم: ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** ﴾ [النساء: ٨٠] وقال: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴾ [الأحزاب: ٢١] وقال: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الحشر: ٧].

فهذا هو أبو بكر الصديق خليفة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وصاحبه فى الغار لم يتصد للمرتدين و مانعى الزكاة إلا بعد إن استشار صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام وتكلموا – رضوان الله عليهم – وأدلى كل منهم بدلوه، فكان مما قالوا «أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة، ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان فى قلوبهم ثم هم بعد ذلك يزكون، فامتنع الصديق من ذلك وأباه – وقد روى الجماعة فى كتبهم – سوى ابن ماجه – عن أبى هريرة أن عمر بن الخطاب قال لأبى بكر: علام تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، فقال أبو بكر: والله لو منعونى عناقا(١) وفى رواية عقالا(٢) كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لاقاتلنهم على منعها، إن الزكاة حق المال، والله لا قاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة. قال عمر: فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق»(٣).

وهل مانع الزكاة يجب قتله وإن أقر بوجوبه؟ وإن كان المجال هنا ليس مجال البحث عن الأبعاد الفقهية أو التشريعية لهذهالقضية، فإن بعض الفقهاء يوجبون قتل تارك

---

(١) الأنثى من أولاد المعز.

(٢) الحبل الذى يعقل به البعير.

(٣) البداية والنهاية ج٣.

الصلاة، وإن لم ينكر فرضيتها استنادا إلى حديث ابن عمر رضى الله عنهما المتفق عليه، «أمرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ، وحديث إبى سعيد لما اعترض رجل على قسمة النبى ﷺ فقال خالد «يا رسول الله ألا أضرب عنقه، لا لعله أن يكون يصلى»[1] فقول الصديق أبى بكر رضى الله عنه: «إن الزكاة حق المال، والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، ربما يعنى وجوب قتل مانع الزكاة مثل تارك الصلاة ولو أقرا بوجوبهما كما هو معنى الحديث المتفق عليه والسالف الذكر وهذا ما ذهب إليه الإمام فخر الدين الرازى رحمه الله فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿**فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم**﴾ حيث قال: «.. وهذا بعد أن جحدوا وجوبها (أى الزكاة)، أما أن اقروا بوجوبها وامتنعوا من الدفع إليه خاصة، فمن الجائز أنه «أى أبا بكر» كان يذهب إلى وجوب مقاتلتهم من حيث إنهم امتنعوا من دفع الزكاة إلى الإمام، وقد كان مذهبه أن ذلك معلوم من دين الرسول عليه الصلاة والسلام، كما يعلم سائر الشرائع الظاهرة[2].

هذا فيما يتعلق بموقف الصديق أبى بكر رضى الله عنه من مانعى الزكاة، أما عقوبة المرتد فقد حسمها سيد المرسلين المبعوث رحمة للعالمين بقوله عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح «من بدل دينه فاقتلوه» والقتل سواء للمرتد أو لمانع الزكاة أو قصاصا لا يتم أو ينفذ إلا بعد صدور حكم نهائى من القاضى ويصدق عليه الحاكم، فللإسلام نظام حكم حضارى، وشريعة نابعة من الكتاب والسنة وإجماع إئمة المسلمين.

* * *

وقد كان الصديق رضى الله عنه يستشير فى كل أمر يهم حياة المسلم فقد جاءت جده تسأله ميراثها «فقال لها: مالك فى كتاب الله شيء وما علمت لك فى سنة

---

(١) يراجع تعليق د. مصطفى كمال وصفى فى الشرح الصغير للشيخ أحمد الدردير طبعة دار المعارف جـ١ .

(٢) مفاتيح الغيب ص ٧.

رسول الله ﷺ شيئاً فأرجعى حتى أسأل الناس. فسأل الناس فقال المغيرة بن شعبة حضرت رسول الله ﷺ أعطاها السدسى فقال أبو بكر هل معك غيرك؟ فقال محمد بن مسلمة الأنصارى فقال مثل ما قاله المغيرة فأنفذه لها أبو بكر الصديق(١).

* * *

كذلك لم يكن منهج الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلا تطبيقا لمنهج لا إله إلا الله محمد رسول الله فى اقرار مبدأ الشورى والعمل به، ذلك أن الاستبداد بالرأى والانفراد باصدار الأحكام والأوامر دون الرجوع إلى الأمة الإسلامية التى يمثلها أولو العلم والعقل الراجح والفقه بالكتاب والسنة الصحيحة -- محظور ومرفوض فى حضارة ومنهج لا إله إلا الله محمد رسول الله.

بعد إن حاصر أبو عبيدة بن الجراح بيت المقدس وضيق على أهلها حتى استجابوا إلى الصلح بشرط أن يقدم إليهم عمر بن الخطاب. وكتب أبو عبيدة إلى عمر رضى الله عنه طالبا قدومه إلى بيت المقدس ولم يتخذ عمر بن الخطاب قرار القدوم أو عدمه إلا بعد ان استشار عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما فأشار عثمان عليه «بأن لا يركب إليهم ليكون أحقر لهم وأرغم لأنوفهم، وأشار عليه على بن أبى طالب بالمسير إليهم ليكون أخف وطأة على المسلمين فى حصارهم بينهم، فهوى ما قال على، ولم يهو ما قال عثمان»(٢).

وعندما خرج رضى الله عنه إلى الشام حتى وصل إلى مدينة «يسرع» وكان أبو عبيدة قد افتتحها - «لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء وقع بأرض الشام قال ابن عباس فقال عمر ادع لى المهاجرين الأولين فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع فى الشام فاختلفوا فقال بعضهم: قد خرجنا لأمر ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال ارتفعوا عنى ثم قال: ادع لى من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوهم، فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا نرى أن ترجع بالناس ولاتقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر فى الناس، إنى مصبح

(١) الإمام مالك بن أنس - الموطأ طبعة الحلبى ص٤٢٠الشورى فى الإسلام د. عبد المجيد عبدالحفيظ.

(٢) البداية والنهاية ج٤.

على ظهر، فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفرارا من قدر الله، فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله أرايت إن كانت لك إبل هبطت واديا له عدوتان ، أحداهما خصبة، والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله. قال فجاء عبدالرحمن بن عوف – وكان متغيبا فى بعض حاجته . فقال: إن عندى فى هذا علما. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه» قال فحمد الله عمر ثم انصرف(١)».

نعم إن الحديث النبوى حسم الموقف مؤيدا ما ذهب إليه عمر وبعض أصحابه ولكنه قبل قدوم عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه، كان على خليفة المسلمين أن يستشير ليستخرج الرأى الصائب ويعمل بمقتضاه، حتى لا يعرض جند الله تعالى للهلاك ضحية لمرض فتاك ألا وهو الطاعون.

وحياة الفاروق عمر رضى الله عنه، حياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، كذلك حياة كل من جاء بعده من الخلفاء الذين تولوا شئون المسلمين كانت الشورى فيها من القيم والمبادئ الأساسية، ويوم أن غابت الشورى وحل محلها القرار الارتجالى والحكم الاستبدادى تحولت الأمة الإسلامية من خير أمة أخرجت للناس إلى أمة تتداعى عليها الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها كما قال سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام.

وإنما صارت أمة كانت خير أمة أخرجت للناس إلى ما صارت إليه، أمة كانت قائدة فباتت مقودة، أمة ظلت معلمة البشرية أصول الحضارة والقيم الإنسانية العليا ظلت هكذا قرونا طويلة، إلى أن أنصرفت عن بواعث مجدها وتقدمها ونهضتها وسيادتها وعزتها. فكان من الطبيعى أن تنتكس وتنهزم وتتقهقر، لأنها تركت كتاب ربها وسنة نبيها محمد ﷺ المصدرين الأساسيين لصنع الحضارة والعزة والسيادة فى الأرض، فكتب لها الشقاء والتخلف والتبعية، و الهزيمة السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية.

---

(١) فتح البارى.

فالشورى كما أكدنا – سابقا – مبدأ إسلامى عظيم خطير والدليل على عظمتها وخطورتها أن النبى محمد ﷺ الذى يتلقى القرآن من لدن حكيم عليم – هذا النبى الكريم أمر من قبل ربه عز وجل بالمشورة، وقبل أن يؤمر – كما قدمنا – كان يستشير الناس، فلم ينفرد برأى ولم يستبد بحكم مدعيا أنه فى غنى عن الاستشارة لأنه نبى موحى إليه، وأن الوحى الإلهى جدير وكفيل أن يعلمه وجه الصواب والخطأ فيما يقدم على أمر من الأمور كلا أنه – ﷺ – لم يفعل ذلك بل استشار ومنح من يستشيره الحرية الكاملة، وإذا اتخذ قرارا، ووجد من أشار إليه برأى آخر أصوب عدل عن قراره عليه الصلاة، والسلام وعمل برأى من استشاره.

* * *

ونحن كعرب ومسلمين نعيش نكبة منذ أكثر من ثلاثين عاما، إذا استطعنا أن نتخلص من بعض آثارها ونتائجها السياسية والعسكرية والاقتصادية السيئة والخائبة بعد أن دفعنا الثمن غاليا من دم ابنائنا وعلى حساب تنمية مواردنا الاقتصادية وانهيار الخدمات والمرافق وتخلفها، رغم ذلك كله فمازالت آثار هذه النكبة السياسية والاقتصادية والعسكرية جاثمة على صدورنا ومازالت بعض أراضينا تحتلها العدو، ومازال الشعب الفلسطينى رهينة يلقى الذل والهوان والخسران، بعد أن قدم لمغتصب أرضه كل ما لم يحلم به.

والسؤال الآن ما الذى أوصلنا إلى ما نحن عليه؟ هل نحن جديرون بواقعنا هذا المهين؟!!

إن الذى نعانيه حكاما وشعوبا ليس له إلا سبب واحد لا غيره، هو الاستبداد السياسى . وحكم الفرد وشيوع الرأى الارتجالى الأهوج وغياب الحكم بالشورى.

* * *

فى عام ١٩٦٧م أصدر رئيس مصر فى ذلك الوقت قرارا بإغلاق خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية. وهذا الرئيس نفسه هو الذى صرح لإسرائيل باستخدام خليج العقبة فى ١٩٥٦م فى مقابل أن تنسحب إسرائيل من شبه جزيرة سيناء، وإن لم يصرح بذلك للشعب، بل الذى صرح به إن سيناء عادت كلها للسيادة المصرية بعد انتصارنا على دول ثلاث!

ولا أعتراض لأحد فى إغلاق خليج العقبة فى ١٩٦٧ . بل إن هذا الاغلاق تصحيح لوضع خطأ يتحمل مسئوليته الرئيس شخصيا .

ولكن الاعتراض كل الاعتراض فى قرار التصريح أو السماح للعدو بالملاحة فى هذا الخلج عام ٥٦ دون الرجوع بالاستشارة لأهل الشورى . والاعتراض كل الاعتراض ايضا فى اغلاق الخليج بقرار منفرد، وإلغاء دور مجلس الشورى المتمثل فى « مجلس الأمة » فى ذلك الوقت . والتجاهل المطلق لمهمة أعضاء هذا المجلس الاستشارى الذى من المفترض على كل رئيس أن يعرض عليه قراراته، فإن حازت هذه القرارات موافقة المجلس أمضاها، وإن رفضت أبطلها والغاها، وهذا معنى قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه، بعد مبايعته كأول خليفة للمسلمين « . . . فإن احسنت فأعيدونى، وإن أسأت فقومونى » قالها الصديق ذلك واضعا بذلك حدود وما هية الحاكم العادل . ورافضا فى الوقت نفسه الحاكم المستبد برأيه، الذى لا قانون يضبط افتراءاته وطغيانه ومغامراته المجنونة .

نؤكد مرة أخرى أن استرداد ما اغتصبه العدو حق مشروع حتى لو كان هذا الاسترداد لا يتم أولا يتحقق إلا بالقتال والمعارك المسلحة ولكن الواجب المحتم على كل حاكم قبل التفكير فى اشتباك عسكرى مع العدو، ان يستشير ذوى العقول الراجحة سواء من المدنيين أو العسكريين، وأن يدرس احتمالات الهزيمة قبل احتمالات النصر لان الحرب – بل كما اسلفنا القول – تعنى ازهاقا للارواح ويتما وترملا وتشويها بدنيا ونفسيا لبعض المصابين .

وهذه الاعتبارات جميعها روعيت وطبقت فى معركة العاشر من رمضان فكان النصر بإذن الله وكان العبور عبور حاجز اليأس والقنوط والإعلان عمليا أن زعم الجيش الذى لا يقهر خرافة أم عمرو وسفاهة وكذب وافتراء .

كما أن هذه الاعتبارات السابقة التى أدت إلى نصر أكتوبر لم تراع فى حرب ١٩٦٧م فكانت الهزيمة الساحقة فى ست ساعات .

ولكن – ولا جل الحقيقة التاريخية – منذ أن خلق الله تعالى الإنسان إلى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها هناك نصر وهزيمة، وهناك خطأ بشر وارد فى جميع مجالات الحياة .

فهزيمة ١٩٦٧ ليست أولى الهزائم وليست آخرها فى تاريخ الحروب قديما وحديثا، ولكن الذى يضاعف من مرارة هذه الهزيمة هو أن الذى تولى كبرها، وكان سببا مباشرا فى اغتصاب الأرض وإزهاق الأنفس البريئة، وضياع الكرامة القومية وإصابتها فى مقتل، المسئول عن كل هذا الخراب كله لم يمسسه سوء ولا لوم، أو تأنيب، وإنما كان العكس هو الصحيح. فقد احتفل به فى مجلس مفترض فيه القيام بإقالته وعزله، ولا نقول محاكمته وإدانته. هذا المجلس الذى لم يستشره عندما أقدم على إغلاق خليج العقبة، ولا عندما منح إسرائيل حق الملاحة فى مياهه، كما ذكرنا ذلك آنفا، هذا المجلس الموقر ذهب أعضاؤه جميعهم إلى منزل القائد الملهم! لا لمعاتبته على عدم استشارتهم قبل اغلاق خليج العقبة. بل مباركته وتأييده على قراره الجرئ!!

وبعد أن وقعت الواقعة، وتحقق للعدو النصر باحتلال سيناء ومرتفعات الجولان، والضفة الغربية بما فيها بيت المقدس مسرى المصطفى ﷺ. أقيم عرس للزعيم المناضل! فى مجلس «الأمة» على سلامته أن لم يصبه مكروه. وإمعانا فى الحفاوة والترحيب به تطوع نائب من نواب هذا المجلس المبجل فقام راقصا معبرا «بهز وسطه» عن فرحته وسعادته بعودة الرئيس إلى منصة المجلس!.

وبينما هذا العرس الراقص قائم فى مدرج مجلس «الأمة»!! والنواب يصفقون مبتهجين مسرورين أن متعوا بطلعة الرئيس البهية، فرحين بلقائه ناسين أو متناسين محنة الأمة الأليمة وكارثة الوطن المفجعة. بينما هم كذلك كان فى موقع ليس ببعيد عنهم مشهد مهين وذليل وشنيع، كان على أرض سيناء الغالية أبناء مصر وشبابها الغض يلقون جميع صنوف القتل والاذلال والتمثيل على يد جنود العدو الإسرائيلى صورة مخذية لشباب برئ القوافى أتون معركة حسبها بعض الواهمين من القادة مباراة كرة قدم بين الأهلى والزمالك فى استاد القاهرة!!

* * *

نكرر ما قلناه سابقا أن الهزيمة الشريفة ليست عارا وأن استرداد الحق السليب واجب مشروع ولو استشهد فى سبيله الكثيرون .. وخرب الاقتصاد الوطنى.. وانتشرت المجاعة والفقر والبؤس ولكن ينبغى ألا يحدث ذلك ولا أقل من ذلك بكثير بسبب الاستبداد، وعبادة الفرد. والفرعونية الطاغية المتكبرة التى ترفض الحوار البناء،

والرأى الحر. والمناقشة فى سبيل نهضة الأمة ورفعتها، أن مثل هذه السياسة الحمقاء التى أتبعها فرعون منذ آلاف السنين الذى كان يقول لشعبه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] و ﴿...مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] نقول ان مثل هذه السياسة مآلها ومصيرها الهلاك والبوار والخسران. كما كان مآل فرعون وجنوده الاغراق فى البحر وبئس الورد المورود.

وإن العجب العجاب أن حكومة إسرائيل برئاسة جولدا مائير ووزير دفاعها موشى ديان صانع انتصاراتهم استقالت بعد هزيمتها فى العاشر من رمضان، استقالت بعد أن اتهمت بالتقصير فى عدم الحفاظ على ما استولوا عليه من أراضينا فى ١٩٦٧، وليس من أراضيهم! ونحن كافأنا من فرط فى أراضينا وأهدر دماء أبنائنا و شبابنا، وضيع كرامة و سيادة الأمة العربية والإسلامية كرمناهم بالاحتفاظ بهم فى مقاعد الحكم وسدة الرئاسة مكرمين معززين حتى يميتهم الموت!!

الفرق بيننا وبينهم ان لا استبداد سياسى عندهم وأن الحاكم لا قدسية له، فإذا أخطأ يعامل مثل أى مواطن عادى ونحن الاستبداد يحكمنا فى جميع مناحى حياتنا، فالرئيس فى أى موقع سياسى أو إدارى له سلطت واسعة لا حدود لها، وله استثناءات فى القانون هو وزمرته وحاشيته وأسرته وأبناؤه من بعده واحفاد احفاده...

والحمد لله لقد مات الحكم الشمولى فى مصر وولى زمنه البائد ولكن – مع الأسف – مازلنا نعيش بعض رواسبه البغيضة رغم وجود المعارضة فى البرلمان، والصحف الحزبية العديدة.

من هذه الرواسب التى ينبغى التخلص منها، الترشيح لمنصب رئاسة الجمهورية واقتصاره على مرشح واحد، فلماذا لا يتعدد المرشحون لهذا المنصب، الذى يجب أن يكفله الدستور للمواطنين كافة.

كذلك من مخلفات الحكم الشمولى ما حدث أخيراً، من إغلاق صحيفة «الشعب» الحزبية، ثم إلغاء الحزب، حزب العمل نفسه، والسبب هو مقال فى هذه الصحيفة مارست فريضة إسلامية. هى إنكار المنكر باللسان، تلاه خروج طلبة جامعة الأزهر وطالباتها معلنين أيضاً الغضب لله عز وجل قولاً. وقد أدان الأزهر أخيراً

ومجلس الشعب أيضاً تطاول «الرواية» ومؤلفها على الذات العلية سبحانه وعلي رسول الإسلام ﷺ. قلم تبق للجنة الأحزاب حجة ولا ذريعة تجيز إلغاء الحزب أو تعطيل صحيفته، ما دامت الجهات المسئولة والمختصة، جرمت الرواية ومؤلفها. وتجريم الرواية براءة للصحيفة، أقول ذلك رغم أنى لا أنتمى ولم أنتم لأى حزب من الأحزاب الحالية أو الماضية، وبناء على ذلك نطالب بإعادة حزب العمل وصحيفته لممارسة حقهما السياسى والصحفى.

فعهد الرئيس «حسنى مبارك» عرف بأنه لم يقصف فيه قلم، ولم تغلق جريدة.

* * *

الجهـــاد
فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله

الصراع بين الخير والشر قديم قدم وجود الإنسان على هذه الأرض، ذلك أن الإنسان مكون من عنصرى الخير والشر، فإذا تغلب عنصر الخير على عنصر الشر كان خيرًا، وإذا تغلب عنصر الشر على عنصر الخير كان شريراً، والخيّر قد يتفوق فى خيريته إلى أن يصل إلى مقام الملائكة، والشرير قد يزداد شروراً وفجوراً إلى أن يسبق الشيطان الرجيم فى شيطانيته الموغلة فى الفساد والإفساد.

فالعنصر الطينى أو الترابى إذا انتصر على العنصر الروحى كانت نسبة الشر أكثر من نسبة الخير والعكس صحيح أيضا.

وأول جريمة قتل فى تاريخ البشرية كانت قتل قابيل أخاه هابيل وكان الدافع للقتل هو الحقد، حقد الأخ أخاه، والحقد خصلة سيئة ورذيلة خلقية، وظلم بين لمن أسبغ الله تعالى عليه بنعمة طاهرة، ولقد حارب الإسلام البغى والعدوان والافتراء سواء على مستوى حياة الأفراد الشخصية، أو على مستوى حياة الأمم والشعوب، ولذا كانت حروب الإسلام كلها ذات بواعث دفاعية إحقاقا للحق، وإبطالا للباطل، وسيأتى الحديث على مفهوم الجهاد فى الإسلام فى موضعه إن شاء الله.

* * *

ولقد شرع القتال قبل الإسلام، شرعه الله تعالى فى الأمم السابقة مثل بنى إسرائيل الذين أنعم الله تعالى عليهم بنعم عظيمة مثل انقاذهم من فرعون وظلمه أياهم بقتل ابنائهم، واتخاذ نسائهم فى خدمته، وانزال المن والسلوى عليهم، وفلق البحر لهم، وإخراج المياه العذبة لهم من الحجر. وتظليلهم بالغمام. ورغم كل هذه النعم المتعددة التى تمتعوا بها إلا أنهم حينما أمروا بدخول الأرض المقدسة يجبنون رافضين القتال فى سبيل الله، مؤثرين عليه الراحة والدعة والرفاهية وكأنهم استمرأوا رغد العيش، وطيب الحياة، جاهلين أو متجاهلين ان نعمة الله سبحانه شرط دوامها شكر المنعم والثناء عليه تبارك وتعالى ولا شكر إلا بطاعته وامتثال أمره، وانتهاء نهيه.

وها هو القرآن الكريم الكتاب الذى «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» يقص عليها تاريخهم ذلك يقول عز وجل: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦] إنه الكنود والجحود والنكران والكفر بنعم الله تعالى عليهم فكان الجزاء الإلهى العادل من جنس العمل وهو الحكم عليهم بالتيه أربعين سنة فى الصحراء، بعد تحريم الأرض المقدسة عليهم حتى انقرض هذا الجيل الفاسق. وجاء بعدهم جيل صالح تمكن بالجهاد والمجاهدة والصبر والمصابرة متوكلين على الله عز وجل، استطاع هذا الجيل الذى لم يخش إلا الله تعالى أن ينتصر على «القوم الجبارين» ودخول الأرض المقدسة.

* * *

وبعد عهد سيدنا موسى وانتهاء رسالته عليه السلام ، لم تتغير طبيعة بنى اسرائيل وما عرف عنهم من الجدال والمشاحنة والتذرع بالمزاعم والدعاوى الواهية تهرباوتنصلا من الانصياع لدعوة الحق، وعصيانا لأوامر الله عز وجل وأوامر انبيائه عليهم الصلاة والسلام بالإضافة إلى نقضهم العهود والمواثيق.

إن القرآن الكريم يعرض لنا صورة حية يتضح فيها جليا أخلاق بنى إسرائيل فى جميع العهود والأزمنة ، وهى – كما قلنا – خيانة العهد وعدم الوفاء بالوعد. فبعد أن سلب ملكهم – وشردوا من ديارهم وضاعت أموالهم، رأوا أن القتال هو السبيل الوحيد لاسترداد حقوقهم المالية و العينية ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ**

الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

نعم لقد تولوا ونكصوا على أعقابهم، ومنذ لحظات كانوا يقولون ﴿**وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا**﴾، فماذا يريدون هل يريدون الملك والمال والأبناء وكرامتهم المهدرة دون أن يجاهدوا خوفا وهلعا من الموت، وفرارا من ملاقاة الأعداء، ورغم ذلك كله استجاب لهم نبيهم لمطلبهم فى بعث الملك قائلا لهم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٤٧]

إن طالوت كان فقيرا، ولم يكن ينحدر من نسل الملوك ولذلك اعترضوا على أن يكون هذا الفقير ملكا عليهم قائلين: أنى يكون له الملك علينا. ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال».

إن ما يحكمهم هو القيم المادية، فالثروة وسعة المال هى المعيار الوحيد والشرط الوجوبى فى القائد أو الرئيس غافلين عن سمات، ومقومات مهمة أخرى. وقد بينها لهم نبيهم وهى: «إن الله اصطفاه عليكم، وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم» إلا يكفيكم اصطفاء الذى له ملك السموات والأرض، وما يتميز به طالوت من العلم الغزير والقوة فى البدن، ولو كان فقيرا لم يرث ملكا أو مالا.

وسنكتفى بهذا القدر اليسير من تاريخ الجهاد فى سبيل الله تعالى. وموقف بنى إسرائيل من هذا الجهاد. وكيف أن الخوف والجبن ونكوث العهد، ونقض الميثاق، من أبرز الطباع والأخلاق التى كانت تحكم حياتهم، بالإضافة إلى التجرؤ وسوء الأدب مع أنبيائهم مثل «فأذهب أنت وربك فقاتلا أنا ها هنا قاعدون» وقد كان أصحاب سيدنا محمد ﷺ كما وصفهم ربهم فى كتابة العزيز ﴿**أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ قالوا للنبى عليه الصلاة والسلام عندما استشارهم عند إقدامه على غزوة بدر لا نقول لك كما قال أصحاب موسى ﴿**اذهب أنت وربك فقاتلا أنا ها هنا قاعدون**﴾ وإنما نقول لك ﴿**اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون**﴾ كما سبق الحديث فى ذلك.

ولعل القرآن الكريم يقص قصص الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام تسرية لنبى الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام أولا.

وثانيا: عظة وعبرة للمسلمين جميعا، ليقتدوا بمن آمن بدعوة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة وأتم التسليم، متجنبين ضلال المضلين، وفسق الفاسقين الذين كذبوا رسالة المرسلين.

أكدنا – قبل ذلك – أن مشروعية الجهاد أو القتال فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله، لم تكن إلا استجابة لدواعى الحرب الدفاعية أو الوقائية – كما سيأتى بيانه – فالإسلام دين يدعو إلى السلام، ولكنه فى الوقت نفسه يبغض الظلم والطغيان والاستكبار فى الأرض ولا لجوء – فى الإسلام – إلى القوة المسلحة إلا بعد نفاد جميع وسائل المودة والعيش تحت راية السلام، دون أن ينال طرف حقا غير مشروع على حساب حق مشروع لطرف آخر.

ومن المعلوم – بداهة – ان لا قتال فى الإسلام للاجبار على اعتناق دين الإسلام، فالآيات القرآنية الصريحة العديدة تؤكد حرية العقيدة وتنهى عن دخول أحد الإسلام فسرا وعنوة، أو بقوة السيف من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقوله تبارك وتعالى: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف: ٢٩] وقوله عز وجل: ﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ [الشعراء: ٣] وقوله تعالى: ﴿ **لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ** ﴾ [الغاشية: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ** ﴾ [ق: ٤٥].

وإنما لم يجبر الإسلام أحدا على الدخول فى عقيدته ومنهجه وإنما اكتفى بالدعوة إلى الدين الحنيف بالحكمة والموعظة الحسنة حيث قال الحق جل وعلا: موجها خطابه إلى نبيه ورسوله محمد ﷺ ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [النحل: ١٢٥] وفى آية أخرى: ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن** ﴾ نعم

لم يفرض الإسلام فرضا على أحد لأنه أولا: إن على الرسول بل الرسل والأنبياء جميعهم التبليغ بدعوة التوحيد وقد ذهب أئمة الفقه الثلاثة مالك وأبو حنيفة وأحمد ابن حنبل إلى أن علة القتال أو الجهاد فى الإسلام هى درء الخرابة وليست درء الكفر. ومذهبهم هذا – رضوان الله عليهم – متفق مع روح الإسلام وجوهره تؤيدهم الآيات السابقة التى أوردناها دليلا ساطعا على عدم إكراه أحد على الدخول فى الإسلام.

والحرابة وهى الباعث الدفاعى بمعنى صد هجوم العدو أو مباغتته بعد ظهور الدلائل الواضحة على تبييت العدو نية وقصد العدوان على دار ودولة الإسلام . وهى بلغة مصطلحات العسكرية المعاصرة هى «الهجوم والإجهاض المسبق أو بعبارة أخرى هى الحرب الوقائية. فالحرابة لا تعنى انتظار العدو حتى مباغة ومفاجأة الديار الإسلامية، كلا! وإنما تعنى إجهاض المخطط المعد للعدوان.

وغزوة بنى المصطلق، وخيبر، وغزوة مؤتة، لم تكن إلا تطبيقا لمبدأ الحرابة وأحباطا لمخطط الأعداء. فبنو المصطلق كانوا قد أعدوا خطة للعدوان على المسلمين بقيادة الحارث بن أبى ضرار. فكان خروجه عليه الصلاة والسلام بعد التأكد من نياتهم العدائية.

وكان الهجوم الإسلامى على حصن خيبر – بعد أن تم حلف خفى بين يهود خيبر، وقبيلة غطفان ضد المسلمين. وغزوة مؤته – كان الباعث إليها مقتل رسول رسول الله ﷺ وهو الحارث بن عمير الأزدى»(١).

فلم تكن حكمة القتال ومشروعيته – فى الإسلام – لإكراه الناس على اعتناق الإسلام، وإرغامهم على دين التوحيد، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام «أمرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله وحسابهم على الله» فقد قال ﷺ «أمرت أن اقاتل» ولم يقل أقتل والمقاتلة مفاعلة تعنى مشاركة ومدافعة من يبدأ بقتالى. أو يكون المعنى لم أومر بالقتال إلا إلى هذه الغاية وليست المراد أنى أمرت أن أقاتل كل أحد إلى هذه الغاية»(٢).

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ / ٢٩٠ الجهاد فى الإسلام. د. سعيد رمضان البوطى.

(٢) أثار الحرب د. وهبه الزحيلى .

كذلك فإن الفتوحات الإسلامية – خارج الجزيرة العربية، بعد انتقال الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى – إنما استهدفت أمرين أولهما – تأمين الدولة الإسلامية، من غارات الأعداء . وذلك بإفشال وإحباط مخططاتهم الحاقدة وتربصهم المستمر بالإسلام للنيل من قوته الحضارية التى بدأت فى حياة رسول الاسلام ﷺ، وذلك بإرسال « كسرى عظيم الفرس من يأتى برأس النبى عليه الصلاة والسلام . وفى قتل عظيم الروم هرقل بعض ولاته الذين دخلوا فى الإسلام فى بلاد الشام.

ثانيهما: طلب الشعوب المستضعفة للمسلمين ، واستشرافهم للفتح العربى، لرفع ظلم الحكام المستبدين فيهم، كما جرى الأمر فى مصر وشمال أفريقيا واواسط آسيا وشرقها[1]. ذلك أن من غايات الجهاد الإسلامى رفع الظلم عن المظلومين، وإشاعة روح الحق والعدل بينهم، كما قال الحق تعالى فى كتابة الحكيم: ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا** ﴾ [النساء: ٧٥].

ولا عجب إذا كان من أهداف القتال فى الإسلام ، محاربة الظلم والعسف والقهر، أو ليست من معانى كلمة التوحيد اللغوية – كما أشرنا إلى ذلك سابقا – القصد والعدل والانصاف، وإقامة قيم العدل ومبادئه، والمسلمون – كما قال رحمة الله للعالمين صلوات الله وسلامه عليه « كرجل واحد إن اشتكى عينه، اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله »[2]..

فما لنا نرى اليوم مسلمين قتلوا ودمروا دون اثم اقترفوه، أو ذنب ارتكبوه، سوى أنهم طالبوا بحقهم فى الاستقلال مثل سائر الشعوب ذلكم شعب الشيشان المسلم الذى تلقى ويلات الغارات الجوية، والقذائف الصاروخية المجرمة صباح مساء، فى زمهرير شيتاء قارس، محروما من مأوى أمن .. وغذاء يقيم الأود. وضمادة لجروحه.

حدث كل ذلك وأكثر من ذلك لشعب يشهد بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا – و العالم الإسلامى بحكامه وشعوبه فى سبات عميق يأكلون وينامون ويتناسلون!!

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ٧٥ النساء ٣ رواه مسلم.

ودعاة حقوق الإنسان، والمدافعون عن الأقليات على مستوى العالم وضعوا أصابعهم فى آذانهم، وأيديهم على أفواههم!! لماذا؟! لأن الشيشان شعب مسلم!

وبالأمس القريب كان شعب غير مسلم يطالب بالاستقلال من دولة مسلمة – فقامت الدنيا ولم تقعد . وتدخلت الأمم المتحدة تساندهم وتدعمها أمريكا مشجعة انفصال تيمور الشرقية عن الدولة الأم اندونيسيا . وتم الانفصال وتحقق لهذا الشعب غير المسلم إرادته، وعاد من اشعل نار الفتنة فتنة الفرقة والانفصال من غربته، عاد إلى تيمور بعد انفصالها عن اندونيسيا متوجا بجائزة نوبل فى السلام!! سلام مع من! وسلام فى مصلحة من؟! لا ندرى! سوى أنها من المضحكات مضحكات القرن العشرين، وشر البلية ما يضحك!.

والمضحك المعجب أكثر أن الحكومة الروسية تزعم أنها تحارب الإرهاب الدولى، ممثلا فى الشيشانيين ! وعلى أمريكا أن تؤيدها فى هذا الزعم الروسى، ولو كان باطلا .

أما مطلب تيمور الشرقية، فليس مطلبا إرهابيا! إنه عين حقوق الإنسان التى يجب أن تحترمها الدول الكبرى ومعها المنظمات الدولية!! إنها– ولا شك – سياسة المعاييرالمزدوجة التى بسطنا فيها القول آنفا، وموقف الإسلام الرافض لهذه السياسة الظالمة.

فى أجندة ساسة المعايير المزدوجة أكذوبة اسمها « الشئون الداخلية » لدولة ما، وهى أكذوبة يخادعون بها الشعوب والحكام المستضعفين وما يخدعون إلا أنفسهم، فالشئون الداخلية، هذه تفسر حسب الأهواء الشخصية، والمآرب الذاتية لهؤلاء الساسة . فأحيانا تصير »الشئون الداخلية » شئونا دولية، وضد حقوق الإنسان – وإن كانت بالفعل شئونا داخلية – ينبغى أن يجيش لها الجيوش، وتحرك لهاالطائرات المقاتلة والسفن الحربية من قواعدها، والصواريخ المدمرة من صوامعها .

وأحيانا أخرى يحكمون على شئون دولية، وإنسانية على أنها شئون داخلية ينبغى إلا تحرك ساكنا، ولا تلفت نظرا لحاجة فى نفس صاحبها!!

هل هى مأساة أم ملهاة، أم هى « حضارة » النظام العالمى الجديد أم« عدالة » عولمة القرن العشرين؟!!

* * *

السـلام
فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله

إن الإسلام دعوة للحياة المثالية، قبل أن يكون دعوة للحياة الآخرة، والفوز بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، وعندما نقول دعوة للحياة المثالية لا نعنى بالمثالية، مثالية المذهب الفلسفى الذى ينكر ذاتية الأشياء، وإنما نعنى بالمثالية التى ينشدها الإسلام، الحياة وفق الشروط والمبادئ والقواعد النابعة من الكتاب والسنة النبوية الصحيحة، وحياة مسلمة أول شروطها هو إقامة دولة العدل، والمساواة، والحرية للإنسانية كافة مع الاعتراف باختلاف العقائد والملل والأديان، بل واحترام هذا الاختلاف ولم يطالب الإسلام بإقامة دولة العدل، والمساواة والحرية إلا لأن هذه الدولة كفيلة بنشر مبادئ السلام والأمان والطمأنينة للبشرية، وفى الوقت نفسه محاربة ووأد وإبطال بذور ومقدمات كل ما يساعد أو يشجع على الشقاق والعداوة، والبغضاء والشحناء، فالله عز وجل الرحمن الرحيم بمخلوقاته علم رسوله محمداً ﷺ الأسلوب والوسيلة الفعالة الهادئة الرزينة فى مخاطبة الذين لما يؤمنوا بدعوته قائلاً سبحانه: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل: ١٢٥] إنها درس فى أدب الحوار الحضارى، ودرس فى الوقت نفسه فى احترام وجهة نظر الخصم ولو كان هذا الخصم مخطئاً، فالدعوة إلى سبيل الله، وهو الخير والفلاح والنصر للإنسان فى حياته الأولى والآخرة، ينبغى أن تكون بالحكمة، وهى وضع الأمور فى موضعها. والموعظة الحسنة. أى الموعظة بلا عنف فى القول ولا تنفير، وبلا غضب، والجدال بما هو أحسن للخصم وأفضل، ذلك أن الجدال إن لم يكن كذلك، فربما كان وسيلة ومطية لعداوات وخصومات ممتدة. كذلك فى آية أخرى يوجه الله تعالى عباده المؤمنين التوجيه المتفق مع خلق الإسلام فى مخاطبة من اختلفوا معنا فى عقيدة التوحيد يقول تبارك وتعالى: ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

إن أسلوب الدعوة الإسلامية هذا، فى أعلى درجات الرقى والسمو والرفعة لسببين:

أولهما أن الحوار مع الخصم إذا كان بهذه السمات الإنسانية لدلالة واضحة على احترامك لخصمك، ولما يعتقده وإن كان معتقده ضد معتقدك.

ثانيهما: إن الرسول ﷺ حينما كان يدعو إلى دين الله الحنيف بالحكمة والموعظة والجدال بالتى هى أحسن، دون أن يلجأ إلى أساليب الإقناع الهمجية أو اللاحضارية مثل استخدام العنف والقهر والإجبار لم يكن يهدف ممن يدعوه، مطلباً مادياً، أو مكسباً دنيوياً رخيصاً، مثل السلطة الحاكمة، أو الثروة الطائلة، أو المنصب أو الجاه، لم يكن يرجو محمد بن عبد الله ﷺ، إلا شيئاً واحداً لا غيره، هو تحرير الإنسان من الظلم، ظلمه لنفسه، وظلمه لغيره، سواء كان هذا الغير من بنى جنسه، أو كائنا من الكائنات الحية التى تدب على البسيطة، من حيوان، وطير، أو نبات، ولا ظلم أشنع وأقبح وأكبر من أن يعبد الإنسان ما سوى الله تعالى. ولم يرسل الله تعالى الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إلا لإعتاق الإنسان وتحريره من هذا الظلم العظيم. ثم تأتى المراتب الأخرى من الظلم، وهى ظلم الإنسان لغيره، وإذا أوتى الإنسان إيماناً يقينياً بتوحيد الله تعالى إلها ورباً واحداً. فلن تحدثه نفسه، بارتكاب رذيلة الظلم والتكبر والطغيان فى الأرض، وكان إقناع الإنسان وإنقاذه من عبادة ما سوى الله عز وجل بأسمى أساليب المخاطبة والحوار رحمة من خالق الكون بعباده، وقد اتبع هذا الأسلوب جميع الأنبياء والمرسلين السابقين لخاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، فهذا سيدنا موسى عليه السلام الكليم، عندما توجه هو وأخوه هارون – عليهما الصلاة والسلام – إلى فرعون عدو الله الذى أله نفسه من دون الله، أمرهما الله تعالى أن يسلكا معه فى الحوار، والإقناع المسلك اللين، والسياسة الحكيمة الرزينة، البعيدة عن أساليب العنف والتأنيب، والتجريح فى القول، لعل هذه الطريقة الطيبة فى المجادلة تؤتى نتائجها وثمارها المرجوة. يقول الله تعالى موجهاً خطابه السامى إلى سيدنا موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم: ﴿**اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ**﴾ [طه: ٤٢-٤٤] نعم صدق الله العظيم ﴿**لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ**﴾ هذه هى طبيعة الدعوة فى منهج لا إله إلا الله دائماً، ولكل من عادى هذا المنهج فى جميع الأزمنة والأمكنة ذلك لأن دعوة

التوحيد دعوة مودة ورحمة وإشفاق على كل من لا يؤمن بها وحرص أكيد من الواحد المعبود بحق على عباده جميعاً. وإلا تأمل معى – قوله عز وجل ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ألا توحى وتشير إلى مدى اشفاقه تبارك وتعالى على عبده، ولو كان هذا العبد متكبراً طاغياً فى الأرض. وإن كان قد سبق فى علمه تعالى أنه لن يؤمن، وستؤدى به حبروته، وصلفه، وغروره إلى عدم نطقه بكلمة التوحيد إلا بعد أن يدرك الغرق ولات ساعة مندم.

والله سبحانه كما بين لنا كيف تكون مخاطبة أعداء الحق، أعداء دعوة التوحيد وذلك من خلال إرشاده جل وعلا سيدنا موسى عليه السلام. فإنه تبارك وتعالى قص علينا فى كتابه الحكيم. كيف أن خليل الله سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أبا الأنبياء كان فى دعوته. أباه أو عمه لدين التوحيد وعبادة الحق عز وجل. وترك عبادة كل ما سوى الحق من أوثان وأصنام المجافية لأدمية الإنسان وكرامته – وهى دعوة الأنبياء والمرسلين جميعاً من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ بأسلوب واحد لا غيره لم يتغير وهو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتى هى أحسن بالقول اللين، الذى ترق له القلوب النابضة بالفقه والحياة، ولكن أبا سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يقابل دعوة الموعظة الحسنة من الإبن المشفق على أبيه، الحريص على إنقاذه من هاوية الشرك، إلا بالصد العنيف، والتهديد والوعيد بالقتل رجما. غير أن خليل الله تعالى أبا الأنبياء عليه الصلاة والسلام، الذى وصفه سبحانه بالأواه الحليم رد على أبيه بالتى هى أحسن، والسلام والتضرع إلى ربه أن يغفر لأبيه.

ونقرأ – معاً – التصوير القرآنى المعجز لهذا الحوار الفريد فى الأخلاق، وحضارة الدعوة بالتى هى أحسن حضارة التوحيد.

يقول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ

﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤١-٤٨].

* * *

ودعوة الإسلام إلى السلام والأمن تقررها آية كريمة فى القرآن الحكيم وهى قوله تعالى عز وجل ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة** ﴾ وسواء كان المراد بالسلم الإسلام أو السلام، فلا يخفى التقاء معانى السلام والإسلام فى وسائل وغايات كل منهما فالمسلم وكما عرفه نبى الإسلام محمد ﷺ: «من سلم الناس من لسانه ويده»، والسلامة من اليد واللسان تعنى السلام والأمن. وتحية المسلمين هى: السلام عليكم. وتحية الله عز وجل للمؤمنين يوم لقائه تحية سلام ﴿ **تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ** ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وتحية الملائكة للمتقين فى الآخرة سلام ﴿ **وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم** ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] ومن أسماء الله الحسنى السلام ﴿ **السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ** ﴾ [الحشر: ٢٣] والرد على جهل الجاهلين هو السلام ﴿ **وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا** ﴾ [الفرقان: ٦٣].

والإسلام لما كان دعوة للحياة، الحياة فى ظل راية السلام، كما أكدنا ذلك سابقاً، لم يكتف الإسلام، بالأمر بشيوع قيم السلام فى الأرض بل اتبع **سياسة وقائية، وسياسة أخرى علاجية**، السياسة العلاجية هى سياسة استثنائية وضرورية وهى القتال كحتمية لإعادة الحق والعدل بعد انتشار الظلم والطغيان فمن أهداف القتال هو إقرار السلام بنشر العدل المفقود، وإعادة الحقوق لذويها:

١- السياسة الوقائية حماية للسلام:

إن مبررات القتال أو الحرب تنحصر غالباً فى فشو الظلم والباطل، وذلك باغتصاب الحقوق من مال وأرض وقتل للأنفس، كما أسلفنا.

إن الظلم وهو تجاوز حدود العقل والشرع والمنطق ممنوع ومحظور فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله. فحق الحياة من الحقوق التى شدد الإسلام على محافظته. والحرص على صونه، فلحياة البشر حرمتها وقداستها وكرامتها التى لا تمس، بأى شكل

من أشكال المساس. إلا بحقها مثل القصاص للقاتل، أو لمن أفسد فى الأرض فساداً يستحق القصاص.

ولقد احترم الإسلام حياة الإنسان مطلقاً. أى بصرف النظر عن عقيدته الدينية، أو طبقته الاجتماعية، أو انتمائه العرقى، أو مذهبه الفكرى أو السياسى، ففى حضارة لا إله إلا الله محمد رسول الله كرم الإنسان تكريماً لم ينله فى أى حقبة من حقب التاريخ الممتد. ويكفينا من مظاهر هذا التكريم الإسلامى للبشر، أنه أقر بحرمة دم الإنسان على وجه الإطلاق، وأن الاعتداء على إنسان واحد بالقتل بدون حق من الحقوق الشرعية، يعد هذا الاعتداء والانتهاك لحرمة الدم البشرى، اعتداء وانتهاكاً. وسفكاً لدماء الناس أجمعين، وأن الحرص على حياة إنسان واحد يعتبر فى منهج التوحيد حرصاً وصوناً لحياة الإنسانية كافة.

هذه المعانى العظيمة فى تكريم الإنسان، والاعتراف الإلهى بمنزلته الكريمة تشير إليه هذه الآية فى الكتاب العظيم الذى لم ينزل على نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام إلا ليأخذ بيد الإنسان لئلا يضل ويشقى فى حياته الأولى والآخرة يقول الحق جل وعلا: ﴿ ... **مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ [المائدة: ٣٢].

اليست هذه الآية الكريمة إعلاناً إسلامياً – منذ أربعة عشر قرناً – لحقوق الإنسان، وهل هناك حق أعظم وأكرم وأسمى للإنسان من إقرار مؤكد باحترام حقه فى الحياة، وتحريم وتجريم انتهاك حرمة هذه الحياة. ورسول الإنسانية، وأستاذ ومعلم البشرية حقوقها الفطرية يؤكد أو يشرح معانى آية سورة المائدة السابقة قائلاً ﷺ: «ابن آدم بنيان الله ملعون من هدم بنيان الله» وقوله عليه الصلاة والسلام «ابن آدم» صادق على المسلم وغير المسلم كما أطلق تبارك وتعالى كلمة «نفس» فى الآية السابقة التى تطلق على الإنسان مطلقاً مهما تكن عقيدته. إننى أهدى تلك الاية من سورة المائدة. والحديث النبوى الشريف التالى للآية الكريمة – أهديهما لدعاة حقوق الإنسان والمنظمات الدولية الذين يزعمون أنهم الحماة والمدافعون لحقوق الإنسان.

هل راعيتم حقوق الشعب الفلسطينى المغتصبة أرضه وتاريخه وسيادته؟! هل دافعتم عن شعب الشيشان الذى تعرض للإبادة الروسية؟! هل الأفريقيون الأمريكيون الذين سيقوا من أوطانهم أرقاء وعبيدا، تساووا مع الأمريكيين البيض فى حقوقهم الوطنية؟! هل حضارة القرن العشرين، والنظام العالمى الجديد. وعولمة الألفية الثالثة من مبادئها «الإنسانية» أن يكون العالم الثالث حقل تجارب لأسلحة الدمار الشامل. والأدوية الطبية التى تنتجها مصانع أمريكا والغرب؟

إن الإسلام لم يحترم حقوق الإنسان إلا رغبة فى اقرار السلام على مستوى العالم. لأن إهدار حقوق الإنسان، وتحقير كرامته وآدميته بأى شكل من أشكال الإهدار والتحقير والإذلال كفيل بإشعال نار الحروب التى لا تبقى ولا تذر.

٢- السياسة العلاجية لاقرار السلام:

إذا لم تفلح السياسة الوقائية التى تحارب الظلم والطغيان والإفساد فى الأرض، واعتدى على دار الإسلام، فلا مفر ولا عدول عن حمل السلاح دفاعاً، واستعادة للحقوق الضائعة، أو التى أوشكت أن تضيع، إذا بيت العدو نية الإغارة على الحرمات الإسلامية ومضيعاً حقوق الإنسان.

* * *

﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

* * *

من مصادر الكتاب

١- القرآن الكريم

٢- مفاتيح الغيب — للإمام الرازى

٣- فى ظلال القرآن — سيد قطب

٤- فتح البارى فى صحيح البخارى

٥- سنن الترمذى

٦- أثر الحرب فى الإسلام — د. وهبة الزحيلى

٧- فقه السيرة — د. سعيد رمضان البوطى

٨- الجهاد فى الإسلام — د. سعيد رمضان البوطى

٩- العبودية — شيخ الإسلام ابن تيمية

١٠- النظام السياسى فى الإسلام — د. محمد سعيد العوا

١١- المذهب العسكرى الإسلامى — بسام العسيلى

١٢- ماذا يريد العم سام — نعوم تشومسكى ترجمة عادل المعلم

١٣- الشورى فى الإسلام — د. عبد المجيد عبد الحفيظ سليمان

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٧
المقدمة	٩
عقيدة التوحيد دعوة جميع الأنبياء والمرسلين	١٧
العدل فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله	٢٤
سياسة المعايير المزدوجة	٣٣
حرية الإنسان فى الفكر الغربى	٤٥
حرية الإنسان فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله	٤٧
الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر	٥٩
الشورى فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله	٦٤
الجهاد فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله	٧٩
السلام فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله	٨٦
السياسة الوقائية حماية للسلام	٩١
من مصادر الكتاب	٩٣
الفهرس	٩٥

* * *

رقـــم الايـــداع
٢٠٠٠ / ١٣٣٢٣
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977-209-055-4

مطابع الكتب المصرى الحديث
MODERN EGYPTIAN PRESS
ت : ٤٤٤١٠٧٠ — ٤٤٤١٠٧٤ — فاكس ٤٤٤١٠٧٧